

الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة

في العصور الوسطى

الأثيوبيون والأحباش - عناصر السكان - سيادة لغة الجعز - تكوين المملكة الحبشية - عناصر حضارتها : الأثر السامى العربى - الأثر اليهودى - أثر الحضارة المصرية - البطالة والحضارة الأغريقية - توسع مملكة أكسوم - دخول المسيحية والنفوذ الروحى للكنيسة المصرية - وصول الرهبانية والديرية إلى الحبشة - أثر المسيحية فى تاريخها الدينى والسياسى - علاقات الحبشة بالعرب قبل الإسلام - الحبشة واليمن - أثر النزاع الفارسى البيزنطى فى العلاقة الحبشية العربية - أبرهة - ظهور الإسلام وهجرة المسلمين الأولين إلى الحبشة - محاولات قريش - ما ذكرته المراجع من إسلام النجاشى - انتشار الإسلام فى الحبشة - ثغر عدوليس - احتلال العرب لجزائر دهلك - المعادن والبيجة وإسلامهم - بنو مخزوم - المراكز الإسلامية - التوسع الإسلامى روحياً وسياسياً - « الطراز الإسلامى » - الخصائص المميزة للملك الطراز الإسلامى : الوضع السياسى لها - نظم الحكم فيها ومظاهره - أحوالها العامة - تاريخها السياسى : أوفات - بلى - هديه - داره - مشيخات الساحل - تطلع الممالك الإسلامية إلى مصر - سياسة ملوك الحبشة : يكونو أملاك ويبرس - أوفات تترجم حركة الجهاد الإسلامى ضد الحبشة - اضطراب مملكة الحبشة - عمداصيون والناصر محمد - سفارة الممالك الإسلامية برئاسة الزيلعى إلى الناصر محمد - اشتداد النزاع بين الممالك الإسلامية والحبشة - سيف أرعد والناصر حسن - نهاية سلطنة أوفات فى زيلع وظهورها باسم « بر سعد الدين » أو مملكة عدال - بين برقوق والنجاشى داود - زرع يعقوب والحلف المسيحى ضد الإسلام خلال حملات مصر على قبرص - محاولة ربط الكنيسة الحبشية بروما - كتاب زرع يعقوب إلى السلطان جقمق - رجحان كفة المسلمين والنجاشى لبان العذراء - حلول العثمانيين محل سلاطين مصر فى حماية مسلمى الحبشة .

تدل المعلومات التى أوردها الكتّاب والمؤرخون من اليونان والرومان ، على أن البلاد التى نعتوها بكلمة (أثيوبيا) تعنى المساحات الشاسعة الممتدة جنوبى مصر من أفريقية غرباً إلى آسيا شرقاً ، وهى المنطقة التى تسكنها العناصر من ذوى البشرة المحترقة

أو السوداء أو الزيتونية اللون ، وهذا ما يعنيه اللفظ الأغريقي (Aethiops) ،
ويتكوّن من مقطعين : (Aitheim) بمعنى محترق ، (ops) بمعنى وجه^(١) .

ومن هؤلاء الكتاب هوميروس الشاعر وهيرودوت المؤرخ اليونانيان، وديودور
وسترابو من مؤرخي الرومان أوائل ظهور المسيحية . قسم هؤلاء المؤرخون سكان
تلك المنطقة تقسيماً عرضياً إلى مجموعتين كبيرتين هما : الأثيوبيون الشرقيون ، وموطنهم
بلاد العرب وسوريا وما بين النهرين ثم امتداد هذا الصقع شرقاً حتى الهند ، والأثيوبيون
الغربيون ، ويقطنون البلاد الواقعة غرب البحر الأحمر وتضم مصر والسودان^(٢) .

على أن الذين تولوا ترجمة الإنجيل إلى اللغة اليونانية ، استعملوا كلمة (كوش)
وأرادوا بها أثيوبيا ، أي أنهم حددوا أثيوبيا أو شطرها الغربي بالمنطقة المعروفة باسم
كوش والامتدة جنوب مصر ، وهي التي اشتهرت بصلتها بمصر منذ أقدم العصور ،
وجاء في سفر التكوين أن كوش هو ابن حام بن نوح^(٣) ويقال إن لكوش هذا ولداً
يسمى إيتيوبس (Aethiopsis) وهو الذي سميت البلاد باسمه^(٤) .

(١) الفتاوى : الجواهر الحسان في تاريخ الحبشة؛ الجاحظ : فخر السودان على البيضاء ص ٨١ .
Coulbeau (J. B.) : Histoire Politique et Religieuse d'Abyssinie,
T. I, p.79

(٢) لهذا التحديد الجغرافي صلة بأسطورة القديس يوحنا .

(انظر : عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ص ١٦٧ - ١٦٩ ؛
Budge (sir E. A. W.) : A History of Ethiopia, Nubia & Abyssinia,
Vol. I, pp. 120. Jone (A. H. M.) & Monroe (Eliz) : A History of
Abyssinia, pp. 59-63, 178, 180) .

(٣) جاء في سفر التكوين : « وبنو حام كوش ومصرام وفوط وكنعان ؛ وبنو كوش
سبأ وحويالة وسبئة ورعمة وسبتكا ؛ وبنو رعمة بشا ودوان ؛ وكوش ولد نمرود الذي ابتداءً
يكون جباراً في الأرض » (الإصحاح العاشر : آيات ٦ ، ٧ ، ٨) .

(٤) اليعقوبي : ج ١ ص ١٥٥ ، المسعودي : مروج الذهب ج ١ ص ١٨١ ؛
Alype (pierre) : L'Empire des Negus, p. 19; Budge, op . cit.
pp. 142, 190.

وهناك حديث ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم مؤداه أن سام أبو العرب وياث أبو الروم وحام أبو الحبش^(٥) .

وحين أعيدت ترجمة الإنجيل من الأغريقية إلى اللغة الأثيوبية المعروفة باسم الجعز، أطلق المترجمون كلمة أثيوبيا وعنوا بها الحبشة ، وكان هذا الاسم الأخير معروفاً وقتئذ، أى في القرن الرابع الميلادي يوم دخلت المسيحية دولة أكسوم الحبشية .

والمعروف أن الأحباش الأكسوميين يفضلون أن تدعى بلادهم أثيوبيا بدلاً من الحبشة ، وأن يدعواهم أنفسهم بالأثيوبيين لا الحبشيين ، بل إنهم ليشعرون بالإهانة إذا ما نعتوا بالأحباش، ولعل ذلك يرجع إلى أن أثيوبيا تعنى الكوش، والكوشيون قد أنحوا سادة على أغلب بلاد شمال شرق أفريقيا ، باستثناء مصر، وذلك بعد إخضاعهم للقبائل الزنجية ، وهذا مجد قديم . كما أن أثيوبيا وردت في التوراة ، فالحرص على هذه التسمية فيه معنى التيمن ، أما الأحباش فتعنى الأخلاط ، فضلاً عن أن الأحباش عنصر أجنبي^(٦) .

أما كلمة الحبشة ، ومنها الأحباش ، وهما اللفظان اللذان صارا في اللغة الأجنبية (Abyssinia – Abyssinians) فيرجع أصلها إلى قبيلة عربية هي «حبشت» السامية التي عبرت البحر الأحمر ، مهاجرة من جنوب بلاد العرب واستقرت في أفريقيا^(٧) ،

(٥) السيوطي: أزهار العروش في أخبار الحبش (مصور عن نسخة بالاسكوريال – ميكروفلم رقم ٢٧ تاريخ بدار الكتب) .

ابن الجوزي : تنوير العرش في فضل السودان والحبش (مصور عن نسخة بالاسكوريال – ميكروفلم رقم ٢٩ تاريخ بدار الكتب) .

(٦) الجواهر الحسان ص ح - ٧ ؛ عابدين : ص ٧ ؛ Budge, op. cit. pp. 120,130; Coulbeaux, op. cit. pp. 81.

Jones and Monroe, op. cit. pp. 10-14.

الشاطر بوصيل : معالم تاريخ السودان وادي النيل ص ٦

(٧) ورد في بعض المراجع العربية أن الحبش من نسل حبش بن كوش بن كنعان بن حام

ابن نوح (ابن عبد الباقي : الطراز المنقوش بمحاسن الحبش (مخطوط) ورقة ٦ ؛ الحلي : أعلام الطراز المنقوش (مخطوط) ورقة ٤ .

ويرجح أن ذلك تم في الفترة بين القرنين العاشر والسابع قبل الميلاد ، والغالب أن الوطن الأصلي لهذه القبيلة هو بلاد اليمن . ولما كانت اليمن خلال تلك الفترة على درجة كبيرة من التقدم والعمران في ظل ملوك سبأ ، فإن هذه القبيلة لا شك كانت أرفع حضارة ومدنية من الوطنيين المقيمين في أفريقية إبتأذ ، وهم الذين استقر الأحباش بينهم . ولم تلبث قبيلة حبشت حتى سادت في موطنها الجديد ، وصبغت البلاد بالصبغة الحضارية التي تميزت بها ، غير أن الوطنيين لم ينظروا بعين الارتياح أو الرضا لسيادة هؤلاء الأجانب . ومع ذلك لم يكد القرن الرابع الميلادي يطلع حتى غلب اسم هذه القبيلة السامية على المنطقة التي استوطنتها ، بل وعلى الوطنيين أنفسهم ، فعدا الجميع أحباشا ، وأصبحت كلمة الحبشة ترادف أثيوبيا^(٨) .

وهنا تحسن الإشارة إلى وجوب التفرقة بين ما نعرفه اليوم بمبدول هذا اللفظ (الأحباش) ، وبين ما عرف قبيل الإسلام من « أحابيش قريش » فهؤلاء الأخيرون ليسوا أحباشا أو زنوجا ، وإنما هم حلف عربي قوامه أحياء من عرب كنانة وخزيمه اللتين كانتا تنزلان أغوار تهامة^(٩) .

ومن الآن فصاعداً، سنستعمل كلمة حبشة كمرادف لأثيوبيا ، وحدود هذه المنطقة قديماً، بين النيل غربا والبحر الأحمر شرقاً، ومن النوبة شمالاً إلى ما وراء خط الاستواء جنوباً ، بمعنى آخر أن الحبشة أو أثيوبيا في فجر الفترة التي يعيننا الحديث عنها، تشمل ما هو معروف حالياً باسم السودان والحبشة وأرتريا والصومال ، وكانت حدودها دأمة

Kammerer (A.) : Essai sur l'Histoire Antique d'Abyssinie, (٨)
pp. 25-82; Coulb. op. cit. pp. 77-78; Budge, op. cit. p, 122;
Trimingham (J.S.) : Islam in Ethiopia, pp. 5,7,32; Pankhurst (S.):
Ethiopia, A Cultural History, p. 28; Encyc. of Islam, Art. «Abyssinia»;

عابدين ص ١٢

(٩) انظر العبادي : صور من التاريخ الإسلامي - العصر العربي ، وهو بحث ممتع عن
أحابيش قريش للتحقق الثبت المرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادي ص ١٣-٢١ .

التغير من ناحية الشمال والجنوب ، وحدث نزاع حول هذه الحدود في العصور الوسطى^(١٠).

أما العناصر المكونة للحبشة ، فالمعروف أن القبائل الكوشية الرعوية الحامية تكون العنصر الغالب في شمالها ، وتنقسم هذه القبائل إلى عدة فروع منها : الأجاو والبجة والساهو والسيداما والجالا، وأبرز هذه العناصر عنصر الجالا (Galla)^(١١) تعرض الكوشيون إلى تغير ثقافي عميق مبعثه هجرة القبائل السامية منذ القرن العاشر قبل الميلاد تقريبا ، وأهم قبيلة سامية ذات الأثر البارز في تاريخ الحبشة ، هي قبيلة حبشت التي سميت البلاد باسمها ، ثم قبيلة الجمز أو الأجاز ، وهي التي سادت لغتها وغدت اللغة الأدبية للمسيحية فيما بعد ، وتعرف اللغة الأثيوبية باسم « لسان الجمز » وأقدم نص كتب بهذه اللغة في الحبشة ، وجد على مسلة ترجع إلى القرن الثالث الميلادي^(١٢) . استقر الجعزيون في مناطق : شيزانا وأجاما وأكيله وجوزي^(١٣) .

لذلك لم تكن هجرة الساميين لقبائل بدوية، وإنما لجماعات من الزراع المتحضرين الذين ألفوا الاستقرار ، ولهم نظمهم الاجتماعية وعناصر حضارتهم العريقة . أدخل هؤلاء الحضارة السبئية المعتمدة على الوسائل الصناعية كوسائل الري المتقدمة في عمل الخزانات والسدود وشق القنوات ، وزراعة سفوح الجبال ، وأدخلوا كذلك استعمال

(١٠) رسمت حدود الحبشة الحالية بمقتضى معاهدة أديس أبابا عام ١٩٠٢ ، بينها وبين السودان ، وذلك من ناحية الشمال والشمال الغربي ، وحدودها الشمالية الشرقية أثريا والصومال بأقسامه ، ويحدها من الجنوب أفريقية الشرقية البريطانية ؛ Budge, op. cit. p. 122 Trimingham, op. cit. p. 1).

ابن حوقل : كتاب صورة الأرض (القسم الأول) ص ١٦

(١١) Budge, op. cit. pp. 129-31

(١٢) عايدن ص ١٣ ؛ Trimingham, op. cit. pp. 6-7, 32

(١٣) Jones & Monroe, p. 34; Trimingham, p. 32; Coulbeaux, (١٣) p. 91; Encycl. of Religion & Ethics, Art. Hamitss & East Africa; Pankhurst, pp. 28, 111; Beckingham (C. F.) & Huntingford (C.W.B.), Trans. & Edit. : some records of Ethiopia, p. LXVIII.

المعادن ، وبعض النباتات الجديدة ، واستخدموا الأحجار في البناء ، وهذا بجانب نوع من التنظيم الإدارى والإقليمى وفن الكتابة ، ومن ثم أُنشئت المناطق التى استقروا فيها مراکز لنشر الحضارة . وقد عثر على أثر قديم لهذا العنصر السامى فى مدينة قديمة تسمت آفا (Ava) وتعرف الآن باسم « يحا » ؛ عثر فى هذه المدينة السامية على بعض أحجار لمعبد إله الشمس وعليها كتابات حميرية ترجع إلى القرنين السابع والخامس قبل الميلاد^(١٤) .

وجد هؤلاء المستعمرون الجدد فى مهجرهم مناخا يشبه ذلك المناخ الذى فارقوه ، مما ساعدهم على مواصلة نشاطهم ، ورغم أن الكثير منهم جاء ومعه نساؤه ؛ إلا أنهم لم يلبثوا أن اختلطوا بالقبائل الحامية وصاهروها ، وكان من نتيج هذا الامتزاج مواطنو مملكة أكسوم ، حيث برز بيت من البيوت الإقطاعية الوثنية ، تولى الزعامة وأسس هذه المملكة التى يرجح أنها قامت فى القرن السابع قبل الميلاد ، ونمت نواة هذه المملكة فى الجبال ثم امتد سلطانها إلى الوديان والمناطق الساحلية حتى ضمت أرتريا ، وعاصمتها « أكسوم^(١٥) » ولم تزل أكسوم حتى الوقت الحاضر العاصمة الدينية للملك الحبشة ، يتوجون فيها .

نشطت مملكة أكسوم ، وهى المملكة الحبشية الأولى ، واستطاعت أن تكون حضارة وطنية متأثرة بالحضارة السامية ، وكذلك بالحضارات الأخرى فى شمالى شرق إفريقيا وهذه الحضارات مشتقة بدورها من الحضارة المصرية القديمة ، ومن أمثال هذه الحضارات المشتقة من الحضارة المصرية مملكة مروى (Meroë) فى وادى النيل^(١٦) ، وكذلك حضارة البجة والشعوب النيلية مثل باريا . غير أن أبرز

Alype, op. cit. pp. 23-24; Pankhurst, p. 48; Trimingham, (١٤) pp. 33-43.

(١٥) تذكر بعض الروايات أن هذه العاصمة أخذت اسم مؤسسها : أكسوماى ؛ Bupge, pp. 140, 190-1- Coulb. p. 84.

(١٦) قامت هذه المملكة فى مروى قرب نباتا عند الشلال الثانى ، وامتد سلطانها من =

عنصر في حضارة أكسوم هو العنصر السبئي الذي اشتقت منه أصلاً^(١٧) .
ومن الحضارات التي أثرت في حضارة أكسوم ، هناك الحضارة اليهودية ، التي
تسربت إلى البلاد عن طريق اعتناق قبائل الأجاو (Agao) لهذه العقيدة . ويرجح
أن اليهود وصلوا إلى الحبشة على أثر تفرقهم أواخر القرن السادس قبل الميلاد حين
ضرب بختنصر البابلي (Nebuchadrezzar) بيت المقدس وشتت بني إسرائيل .
ويعرف اليهود في الحبشة باسم قبائل الفلاشة^(١٨) ؛ وقد كون هؤلاء مستعمرات تجارية في
الحبشة وغيرها ، وصارت هذه المستعمرات خلايا للرعاية اليهودية فضلاً عن النشاط
التجاري الذي أسهم في تقدم أكسوم ، ورغم أن قبائل الأجاو قد اعتنقت اليهودية
إلا أنها لم تثبت عليها ، فقد تحولت فيما بعد إلى المسيحية المينوفيزيتية ، ولا يخفى أثر
اليهودية في الأفكار السياسية والدينية لملكة الحبشة ، منها أسطورة تسلسل ملوك
الأحباش من سلالة سليمان الحكيم وزوجته ملكة سبأ التي يسميها الأحباش ماقداه
(Makeda)^(١٩) ، أما أثر الإغريق والحضارة الهلينية ، فقد وصل عن طريق البطالة
في مصر ، ولعبت الثغور التجارية التي أنشأوها على ساحل البحر الأحمر الغربي دوراً
هاماً في نقل الحضارة الهلينية إلى دولة أكسوم الناشئة ، ومن هذه الموانئ البطلمية
الإغريقية : ليوكوس ليمون وميوس هرموس ، وبدا مظهر الحضارة الهلينية في
التنظيم التجاري وإصلاح الموانئ وصيانتها وتنظيم الجيوش ، ونظم التعليم والإدارة ،

= الشلال الأول إلى حدود الحبشة ، وتأثرت بالحضارة المصرية القديمة ، ومن مظاهر هذا التأثير
أن ملوك مروى كانوا يدفنون موتاهم في مقابر على شكل أهرامات ، وتكتب أسماءهم في
خراطيش ، وذلك على النحو المعروف عند الفراعنة (Budge, pp.56-62 ؛ عبدالله حسين :
تاريخ السودان ص ٥١ - ٥٢) .

Trim., pp. 33,35 (١٧)

(١٨) الجواهر الحسان ص و ، ٨ ؛ Hall (H.R.): The Ancient Hist. of the
Near East, p. 246.

(١٩) عابدين ص ١٦-١٧ ؛ Trim., pp. 345; Budge, p. 194; Coulb. ;
pp. 95,99.

والمعروف أن البطالة استخدموا عددا من الأجناس الملونة في الخدمة الحربية لحراسة موانئ البحر الأحمر ، وكان هذا سبيلا لانخراط عدد من رعايا الدولة الأكسومية نفسها ضمن الفرق الحربية البطلمية . ويقال إن ميناء عدوليس (Adulis) قد أنشئ أو أعيد إنشاؤه وإصلاحه على عهد بطليموس الثالث الملقب بيورجيس الأول (Euregetes) (٢٤٧ - ٢٤٢ ق.م) ، ويقع على الخليج الذي كان يعرف باسمه ، ويعرف حاليا بـخليج أنسلي (Annesley) ومكانها الحالي ثغر زولا (Zula)^(٢٠) ظل هذا الثغر خاضعا للبطالة ، وقد عثر التاجر الرحالة المصرى الإسكندرى كوزماس (Cosmas) على أثر في هذا الثغر في القرن السادس الميلادى ، يعرف هذا الأثر باسم أثر عدوليس (Monumentum Adulitanum) وهو عبارة عن كتابات باللغة الإغريقية سجلت زمن بطليموس الثالث وتذكر أن الفرق العدولية والأثيوبية التى رافقته فى حملته الآسيوية إنما جمعت وعبئت من المناطق المجاورة ، ولهذا الثغر أهميته الكبرى فى تصدير المنتجات الإفريقية ونقل الحضارة الإغريقية^(٢١) .

أخذت دولة أكسوم تتسع على حساب جيرانها ، وقد اعترف الرومان بها على أثر فتحهم لمصر عام ٣٠ ق.م ، وأشار مؤرخو الرومان لهذه الدولة باسم (Axumitoe)^(٢٢) وامتدت غربا إلى وادى النيل ووصلت فى توسعها شمالا إلى سواكن وهاجمت البجة والنوبة لتأمين حدودها ، وصارت ميناء عدوليس ميناءها الرئيسى ، ويبعد عن العاصمة بنحو مسيرة ١٥ يوما .

تعددت مشروعاتها التوسعية ، حتى بلغت ذروة المجد على عهد الملك عزانة (Ezana) الذى تولى العرش حوالى عام ٣٢٠ م ، فالتفت حدودها ونشطت تجارتها وعم الرخاء رعاياها ، كما أنضحت العاصمة أكسوم المركز الرئيسى للتجارة فى شمال إفريقيا ،

Encycl. of Islam, Art. «Abyssinia» (٢٠)

Coulb p. 99 Pankhurst, pp. 20-16 ؛ ١٩-١٨ ص (٢١)

Alype, p. 25; Trim. pp. 35-36

Coulb., p. 84 (٢٢)

يقصدها التجار من مختلف الجنسيات ، حتى أشبهت على عهد عزانة ، الإسكندرية على عهد البطالمة . بل إن أى أثر أو نقش ذى أهمية فى تاريخ الحبشة ، إنما يرد إلى عهد هذا الملك، كتبت حولياته بالإغريقية وبالحبشية أو الحميرية، وربما قورن بدارا الأكبر الفارسى من حيث إن كلا الرجلين رغب فى أن يقرأ رجاله أعماله ويشهدوا مآثره ، كل بلغته الخاصة حين يزور العاصمة ، وقد طال عهده وازدهر . وبجانب كونه محاربا من الدرجة الأولى كان سياسياً من الطراز الأول ، وحسبنا دليلاً على سعة نفوذه أن السجلات التى دوّنت فى عهده كانت تستهل بعبارة « نحن عزانة ملك أكسوم وحمير وريدان (صفر بالين) - وسبأ وسالحين (حصن مأرب) - وسيامو (القبائل الساكنة جنوب شرق أكسوم) - وبجة وكاسو (الكوش) ... » (٢٣) .

وعن اعتناق أكسوم للمسيحية ، يلاحظ أن هذه الدولة كانت تدين بالوثنية ، وعلى دين الصابئة الذى أتاها من اليمن . وأعظم آلهتها « عثر » آلهة السماء ، ومدر (Meder) آلهة الأرض ومحرم (Mahràm) إله الحرب ، ويقابله الإله مارس (Mars) إله الحرب عند الرومان (ومارس هو كوكب المريخ) ويعتبر محرم إله الأسرة الحاكمة، التى تدعى أنها منحدره عنه، فى سجلات الملك عزانة أن أباه الإلهى هو محرم . وأغلب رعايا الدولة الأكسومية على الوثنية، ولآلهتها عدد كبير من المعابد يتبعها طوائف من الكهان (٢٤) .

وخلال القرون الأولى للمسيحية، نهضت طوائف المبشرين بعملها فى مصر وشمال شرق إفريقيا ، وازداد عدد الداخلين فيها ، ولا سيما بعد مرسوم ميلانو عام ٣١٣م ،

Coulb., pp. 138-9; Pankhurst, p. 51; Budge, pp. 242-3 (٢٣)
Bury (J.B.): Hist. of the Later Roman Empire, Vol. II, p. 323;
Kammerer, op. cit., pp. 58, 87-88
Trim., p. 37; Kammerer, pp. 121-3, Budge, pp. 142, (٢٤)
243.

وهو المرسوم الذى أصدره الامبراطور قنسطنطين الأكبر معترفاً بالمسيحية ضمن الديانات القائمة فى امبراطوريته^(٢٥). وتسربت المسيحية إلى الحبشة فى وقت مبكر عن طريق العلاقات التجارية مع بيزنطة وولاياتها ؛ على أن تأسيس الكنيسة الحبشية الأكسومية يرجع إلى أخوين صوريين هما: فرومنتيوس (Frumentius) وأيدسيوس (Aedesius) .

يذكر المؤرخ رفينوس المتوفى عام ٤١٠ م أن الفيلسوف أو التاجر الصورى (Meropius) ، أرسل جماعة للتبشير بالمسيحية بين الأحباش وكان الأخوان فرومنتيوس وأيدسيوس ضمن هذه البعثة ، فلما وصلت السفينة بهم إلى إحدى موانئ البحر الأحمر المحلة على الحبشة ، خرج عليهم المواطنون وقتلوه ولم ينج سوى هذين الأخوين اللذين أخذوا كرفيق وبيعا إلى الملك فى أكسوم ، وفى البلاط الأكسومى عمل الأول رائداً للأمير الطفل ولى العهد ، واشتغل الثانى ساقياً للملك ، وعند ماتولى ولى العهد العرش ، وهو عزانة ، بقى الأخوان فى خدمته ، وبرز اسم فرومنتيوس بسبب نشاطه الدينى فى نصيح المسيحيين من تجار الإغريق المقيمين فى أكسوم وأخذ يحثهم على بناء الكنائس ، ونجح فى ذلك نجاحاً كبيراً . وبعد فترة غادر الأخوان أكسوم ، وصار أيدسيوس أسقفاً لمدينة صور حيث التقى بالمؤرخ رفينوس وقص عليه قصته ، وتوجه فرومنتيوس إلى الإسكندرية حيث تقابل مع البطريرق أنثاسيوس ، الذى كان قد تولى البطريركية منذ عام ٣٢٨ م ، وتناقش معه فى وجوب إرسال أسقف ليشرع على المسيحيين الذين كثر عددهم فى أكسوم وليس لهم راع أو رئيس يرشدهم . أجاب أنثاسيوس بعقد مجلس من الأساقفة بالإسكندرية واستقر رأى على إرسال فرومنتيوس نفسه ، إذ بدأ فى نظر المجلس أنسب رجل لهذه المهمة التى خبرها من قبل ، وصدر قرار تعيينه أسقفاً للحبشة عام ٣٤١ م أو ٣٤٦ م . سافر الأسقف إلى أكسوم

(٢٥) انظر المرسوم فى : Barker, (E.) from Alexander to Constantine.

*Passages & Documents Illustrating the Hist. of social & Political Ideas». pp. 468-471.

وقام بمهمته خير قيام ، ويعتبر مؤسس الكنيسة الحبشية وأول أسقف لها .
وخلال إقامته اعتنق الملك عزانة المسيحية بعد أن كان وثنيا وجعلها الدين الرسمي للدولة
حوالى عام ٣٥٠م ، وربما أشبه عزانة الإمبراطور قنسطنطين الأول فى اعترافه
بالمسيحية واعتناقه لها ، حتى ليعد فى نظر بعض المؤرخين أنه قنسطنطين الحبشة^(٢٦)
كما أنه يشبه من جانب آخر الامبراطور تيود سيوس الأول الذى جعل المسيحية الدين
الرسمى للامبراطورية البيزنطية .

ومنذ ذلك الوقت أضحت الشارة التى تزين عملة عزانة هى شارة الصليب الإغريقى
وحلت هذه الشارة محل رمز الشمس والقمر الذى كان يطبع على عملته
حين كان على الوثنية . احتفى عزانة ومن تبعه من المسيحيين ، بالقدس
فرومنتيوس ولقبوه الأب سلامة (Abba Salama) ويقال إن الأب سلامة هو
الذى ترجم الإنجيل إلى لغة الجعز أو على الأقل بدأ هذه الترجمة ، وخلفه فى منصب
الأسقفية الحبشة القديس مينا أو الأب ميناس (Abba Minas) الذى عين بقرار من
البطريق اثناسيوس عام ٣٦٢م^(٢٧) . وحدث خلال تلك الفترة أن أرسل الامبراطور
البيزنطى قنسطنطيوس الثانى (٣٣٩-٣٦١م) أسقفا معينا من قبله وهو الأسقف
ثيوفلس الأريوسى ، عينه الامبراطور على كنائس الحبشة واليمن وجزيرة سوقطرة^(٢٨)
وبعث إلى عزانة وأخيه شيزانا (Shaiazana) خطابا عام ٣٥٦ ، يطالب إليهما فيه

(٢٦) Pankhurst, pp. 120-5; Kammerer, p. 85 Jones & Monroe, pp. 26-27.

(٢٧) الجواهر الحسان ص ٩ ؛ Budge , pp. 38-40. Trim. , pp. 322, Bury, II , pp. 147-8, Coulb., pp. 159-161.

(٢٨) اختلفت الآراء فى مهمة الأسقف الأريوسى ثيوفلس ، فنسب إلى هذا الأسقف
نشر المسيحية فى جنوب بلاد العرب وإنشاء ثلاث كنائس فى ظفار وعدن وهرمز ، وهذه
الأخيرة مع الخليج العربى ؛ ونسب إليه كذلك عقد معاهدات تجارية لصالح الامبراطورية البيزنطية ؛
وهناك من يقول أن مهمته قد اقتصر على تحويل المسيحيين الموجودين فى تلك البقاع ، إلى
المذهب الأريوسى . (Trim, p. 40 , Bury, II p. 322)

طرد القديس فرومنتيوس لأنه مهرطق^(٢٩) ، غير أن الملك لم يستمع إلى هذا الطلب ، وظلت الكنيسة الحبشية منذ ذلك العهد مرتبطة بكنيسة مصر حيث يقوم البطريق القبطي بتعيين أسقف (مطران) للحبشة^(٣٠) ، ويقال إن أحد المجامع الدينية التي عقدت في نيقيا خلال القرن الرابع الميلادي ، قد أقر خضوع كنيسة الحبشة لمصر ومضمون القرار - : « أن مسيحي الحبشة لا يجوز لهم الاستقلال بأمورهم الدينية ، وإنما هم تابعون للكرسي الإسكندري^(٣١) . وفي هذا المعنى يقول المقريري : « ولا بد للحبشة من مطران يوليه بطريق النصارى اليعاقبة بمصر ، بعد سؤال الحطى - لقب ملك الحبشة (Hade) - لسلطان مصر في ذلك بكتاب يبعثه مع مرسله صحة هدية ، فيتقدم البطريق بتعيين مطران^(٣٢) . وفي كتاب القوانين : « والحبش فلا يبترك عليهم بترك من علمائهم ولا باختيار منهم في أنفسهم لأن بتركهم إنما يكون من تحت يد صاحب الإسكندرية وهو الذي ينبغي أن يصلح عليهم قاتوليقا الذي هو دون البطريرك ومن قبله ، فإذا بترك عليهم هذا المذكور باسم القتلقة فليس له مطلقا أن يعطرن مطارنة كما يعطرنهم البطارقة ، لأنه إنما يكرم باسم البطريركية من غير أن يكون له سلطان ذلك^(٣٣) »

ولهذا المطران المصرى مكانة محترمة في نظر الحبشة ، كما أن لأوامر البطريق المصرى من الاعتبار بقدر ما لشريعته من الحرمة في عين الأحباش . يقول العمري « وإذا كتب إليه - أى إلى ملك الحبشة - كتابا فأتى ذلك

(٢٩) انظر نص الخطاب في : Pankhurst, pp. 58-59

(٣٠) Bury, II, p. 322, Trim, p. 39, Budge, pp. 150, 243

(٣١) الجواهر الحسان ص ٩

(٣٢) يلاحظ أن صلة الحبشة الدينية بمصر قد انقطعت خلال الاحتلال الإيطالي ، ثم استؤنفت

عقب عودة هيلاسلاسى إلى الحكم . Trim., p. 25

المقريري : الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٣

القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج ٥ ص ٣٢٢-٣٢٣

(٣٣) ابن العسال : كتاب القوانين (قانون رقم ٤٢ من القوانين النيقية) ص ٢٣

الكتاب إلى أول مملكة ، خرج عميد تلك الأرض فحمل الكتاب على رأس علم ولا يزال يحمله بيده حتى يخرج من أرضه وأرباب الدولة في تلك الأرض كالقسوس والشمامسة حوله مشاة بالأدخنة ، فإذا خرجوا من أرضهم تلقاهم من يليهم أبداً ، كذلك في كل أرض بعد أرض حتى يصلوا إلى آخره ، فيخرج صاحبها بنفسه - أى الملك - ويفعل مثل ذلك الفعل الأول ، إلا أن الطران هو الذى يحمل الكتاب لعظمته لا لتأني الملك ، ثم لا يتصرف الملك في أمر ولا نهى ولا قليل ولا كثير حتى ينادى للكتاب ويجمع له يوم الأحد في الكنيسة ويقرأ الملك واقف ثم لا يجلس مجلسه حتى ينفذ ما أمر به» (٣٤).

وخلال حكم الملك الأكسوس ال عامدا (Al 'Amida) دخلت الرهبانية والديرية. حوالى عام ٤٨٠ م ، وذلك حين وفد على الحبشة عدد كبير من الرهبان وأسسوا عدة أديرة في مناطق مختلفة ، منها منطقة تيجرى ، ويقال إن بعثة مكونة من تسعة رهبان قديسين من أصل سورى جاءت من مصر وروما ودخلت أثيوبيا بقصد إصلاح العقيدة وتأسيس الأديرة ، وينسب إلى أعضائها ترجمة الإنجيل من الإغريقية إلى لغة الجعز الوطنية ، بدليل وجود بعض الألفاظ السوربانية في لغة الجعز ، أدخل هؤلاء الطقوس المتبعة في الإسكندرية ، ومن أولئك التسعة الأب ألف (Alef) مؤسس دير بحزا والأب ميخائيل (Za-Michael) (٣٥) مؤسس دير برادامو في تيجرى. وهكذا . . ، ويبدو أن كلا من أولئك الرهبان التسعة قد أسس ديراً شمالي الحبشة. وجمع حوله طائفة من الرهبان .

والملاحظ أن الرهبانية التي انتشرت في الحبشة كانت على النظام الباخومي المصرى. نسبة إلى الراهب باخوم (١٩٢-٣٤٦ م) وهى الرهبانية الاجتماعية أو الديرية (٣٦). وفى

(٣٤) العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف ص ٣٠-٣١ ؛ صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٠٨-٣٠٩

(٣٥) انظر عابدين ص ١٤

(٣٦) Munier (H.) : L'Egypte Byzantine (Précis de l'Hist. d'Egypte) T. II, pp. 14-18

النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي ، وفد كثير من الرهبان الأفباط من مصر وأدخلوا في الحبشة عدة كتب دينية مثل كتاب الصلوات وأناجيل الحواريين وهذه كلها ترجمت إلى لغة الجعز^(٣٧) .

هكذا كان دخول المسيحية وما تفرع عنها من نظم إلى الحبشة ، ولهذا أثره الكبير في تاريخ الحبشة الديني والسياسي ، إذ غدت الكنيسة الحبشية مرتبطة بكنيسة مصر منذ البداية ، وبكنيسة بينزنطة إلى حد ما ، نظرا لأن الامبراطورية البيزنطية تعد نفسها حامية للمسيحية ، ومعنى هذا ارتباط الحبشة المسيحية بالحضارة الإغريقية المنتشرة في حوض البحر الأبيض على نطاق أوسع مما كان عليه الأمر إبان وثنيتها . ومن جانب آخر ارتبطت الحبشة بالمسيحية في جنوب بلاد العرب بل أنحت نائبة عن بينزنطة في رعاية المسيحيين باليمن ونصرتهم عند الحاجة . غير أن ارتباطها بالإسكندرية كان بطبيعة الحال أقوى من صلتها بغيرها ، ولا سيما بعد اعتناق العرب في الجزيرة العربية للإسلام . وهناك الأثر الثقافي واللغوي ويتمثل الأخير في دخول بعض تحسينات على اللغة الحبشية القديمة ، وتسرب بعض الألفاظ السوربانية إليها^(٣٨) .

على أن البارز في أثر المسيحية في الحبشة ، هو تعصبها الشديد لمسيحياتها يقول المقرزي : « والحبشة يتشددون في دياناتهم تشددا زائدا ويعادون من خالفهم من سائر الملل أشد عداوة ويعادون الطائفة الملكية (الملكانية) من النصارى^(٣٩) . ولعل مبعث هذا التعصب ضد الإسلام خاصة هو إحاطة الإسلام للحبشة من جميع الجهات تقريبا ونشاط الدعاية الإسلامية وازدياد الرقعة الإسلامية في البلاد الحبشية ، كما أن اختلاط الأهداف السياسية بالحماس الديني قد أدى إلى حدة هذا التعصب ،

Coulb. , pp. 168-170; Trim., pp. 22-23, 40; Budge, (٣٧) pp, 152-3

(٣٨) انظر عابدين ص ٢٠-٢١

(٣٩) الإلام ص ٣

وربما كانت الأهداف السياسية هي الباعث الأكبر على الحروب التي نشبت بين الحبشة والممالك الإسلامية التي جاورتها^(٤٠).

ومن حيث علاقة الحبشة ببلاد العرب قبل الإسلام ، فالملاحظ أن هذه العلاقة قد بدأت تجارية ، فيذكر عن دولة أكسوم في أول بروزها أنها أخذت ترسل البعثات إلى الجهات المختلفة ومن بينها اليمن ، وحين بدأت توسعها الإقليمي ، عبرت البحر الأحمر ، وأول غزوها في اليمن كان في الفترة الواقعة بين عامي ٢٧٧، ٢٩٠م واستطاعت بالفعل أن تستولى على اليمن في الفترة ما بين ٣٠٠م ، ٣٧٨م واستولى الملك عيزانا على اليمن حوالي عام ٣٢٠م أو ٣٤٢م بدليل النقش الذي تركه مسجلا فتوحه^(٤١)؛ غير أن الحميريين (١١٥ ق م - ٥٢٥م) تمكنوا من طرد الحبشة التي ظلت تدعى سيادتها على اليمن . ولما كانت المسيحية قد انتشرت في جنوب بلاد العرب ، وكانت الامبراطورية البيزنطية تعتبر نفسها حامية للمسيحية ، وهناك ارتباط بين كنيسة الحبشة وبين بيزنطة ، فقد بدأ عامل جديد هو العامل الديني ، لحث دولة أكسوم على التدخل في اليمن لحماية المسيحية ، ويحتمل أن الغزو الحبشي تكرر على عهد الامبراطور البيزنطي زينو (٤٧٤ - ٤٩١م) أو أنسطاسي (٤٩١ - ٥١٨م) ، وخلال تلك الفترة أخذت اليهودية تزحف إلى اليمن من مستعمراتها بالحجاز في يثرب وخيبر، على عهد الامبراطور البيزنطي جستين الأول (٥١٨ - ٥٢٧ م) ، وحينئذ ظهر أمير في اليمن هو ذونواس الحميري ، اعتنق اليهودية وحاول طرد الأحباش ، وعذب النصارى ، ويقال إن حملة الاضطهاد العنيفة التي شنها ضد النصارى في بلاده ، كانت ردا على ما لحق اليهود من اضطهاد في الامبراطورية البيزنطية^(٤٢). فضلا عن العامل الوطني، تدخل ملك الحبشة

(٤٠) انظر عابدين ص ١٦٦ وما بعدها .

(٤١) انظر ما سبق .

(٤٢) Bury; p. 323

إلى أصبحه Ella Asbeha (٥١٤ - ٥٤٢ م) واستعاد سلطانه عام ٥١٩/٥٢٠ م .
غير أن ذا نواس استطاع التغلب على الحبشة واسترد سلطته وأمعن في اضطهاد النصارى
وتوجه إلى نجران عام ٥٢٣ م وطلب إلى أهلها اعتناق اليهودية فأبوا ، فقتلهم وعذبهم
وحفر لهم أخدوداً ، وهؤلاء هم أصحاب الأخدود الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم
« قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ، النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ . . . »^(٤٣) ثم أرسل ذو نواس إلى
المنذر ملك الحيرة وحثه على أن يقضى على المسيحيين في بلاده ، وحين وصلت سفارته
إلى المنذر وهو في معسكره بالرملة في يناير سنة ٥٢٤ م كان بحضرته سمعان رئيس
المنوفيزييين في الامبراطورية الفارسية ، مرسلًا من قبل الامبراطور جستين الأول
ليفاوض المنذر في الصلح ، فلما سمع ما فعله ذو نواس بنصارى نجران تملكه الفزع
والرغبة في الانتقام ، وأسرع لإشاعة هذا الخبر بين المسيحيين المنوفيزييين في المدن
الكبرى أمثال أنطاكية وطرسوس وغيرها^(٤٤) .

أرسل بطريق الإسكندرية المعاصر يومئذ وهو تيموش (Timothy) رسالة إلى
ملك الحبشة لينهض للانتقام لضحايا نجران ، ويحتمل أن الامبراطور جستين الأول
كان قد اتفق مع بطريق الإسكندرية على مخاطبة ملك الحبشة وهذا فضلاً عن استنجاد
نصارى نجران بملك أكسوم وكان رسولهم هو ذو ثعلبان الأصفر^(٤٥) ، ولما لم يكن
لدى إل أصبحه سفن كافية للغزو طلب مدداً من الامبراطور جستين ، وهو يعلم حق العلم
العداء المزمع بين بيزنطة وفارس ، وأن الحميريين قد حالفوا الفرس وأن ذا نواس
لا يعدو أن يكون صنيعه الفرس . بمعنى آخر إن نزاع الحبشة واليمن كان صدى للنزاع
بين فارس والروم ، وسرعان ما استجاب أمبراطور بيزنطة ، فقام ملك الحبشة على
رأس جيشه وقضى على ذى نواس ٥٢٤ م / ٥٢٥ م الذى آثر أن يقتحم البحر بفرسه
على ألا يقع أسيراً في يد الأحباش^(٤٦) .

(٤٣) سورة البروج آية ٤ وما يليها .

(٤٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١ ص ١٨٨ - ١٨٩ ؛ Bury, p. 234

(٤٥) ابن سعد الحميرى : منتخبات في تاريخ اليمن ص ١٥

(٤٦) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٢ ص ١٦٨ - ١٧٠

ثم عين على اليمين مسيحيًا من حمير هو سميفع أشوع (Esimiphaos) كملك تابع له^(٤٧).

كان هذا هو الوضع السياسي لليمن وأكسوم عند ما أرسل الامبراطور جستينيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) رسوله جوليان عام ٥٣١ م إلى بلاط ملك الحبشة وبلاط ملك حمير المسيحي ليفاوض الدولتين في الاتحاد والتحالف ضد فارس ، وافق ملك الحبشة ووعد بحرب اقتصادية ضد فارس مؤداها قيام الحبشة بالقضاء على احتكار الفرس لتجارة الحرير ، وذلك بالعمل على نقل هذه السلعة على سفن حبشية رأساً من سيلان إلى موانئ البحر الأحمر ، وقد نجحت هذه السياسة وأفادت الحبشة مادياً . كذلك وافق ملك حمير باعتباره تابعاً لملك الحبشة . ولما كانت نجد في ذلك الوقت خاضعة لحمير وأميرها قيس كان قد فر هارباً لقتله أحد أقرباء ملك حمير ، فقد فكر جستينيان في استغلال هذه الحالة بأن يستصدر عفواً عن قيس ، على أن يقوم بمعاونة حمير حربياً ضد فارس ، غير أن حمير لم تستطع القيام بأي عمل حربي ضد فارس لبُعد الشقة^(٤٨).

قامت بعد ذلك فتنة في اليمن انتهت بتدخل ملك الحبشة وهرب السميفع وتولية أبرهة (Ella Abreha) حاكماً على اليمن وأرباط حاكماً على حمير ، ولكن الأمور لم تلبث أن تعقدت بسبب تنافس أبرهة مع أرباط . تمكن أبرهة من قتل أرباط والاستقلال بحكم اليمن حوالى عام ٥٣١ م ، وقد جرح أبرهة خلال حربه ضد أرباط ومن أجل ذلك سمى الأشرم فقد شرم حاجباه وأنفه وشفته ، ورفض أبرهة دفع الجزية إلى النجاشي إل أصبحه ، ولما فشل النجاشي في إقناعه ، وافق على جعله ملكاً على اليمن ، وعندئذ انتحل أبرهة لنفسه لقب « ملك الحبشة » . أما النجاشي فيذكر عنه أنه بعد عودته من اليمن ترهب وأرسل تاجه إلى بيت المقدس ليعلق بجوار قبر المسيح ، وربما كان النجاشي المعروف باسم « بيت إسرائيل » وهو ابن إل أصبحه هو الذي

(٤٧) عابدين ص ٥٧ ؛ Budge, pp. 261-263

(٤٨) Coulb., p. 183; Bury, pp. 325-7

اعترف بسلطة أبرهة باعتباره ملكاً على اليمن ، ثم حكم في الحبشة بعد بيت إسرائيل أخوه « جبره مسقل » (Gabra Maskal) أى عبد الصليب عام ٥٥٠ م وامتد حكمه حتى ٥٧٠ أو ٥٨٠ م^(٤٩) .

وخلال تلك الفترة كان أبرهة فى اليمن يعمل على التوسع لحسابه دون نظر إلى النجاشى وبنى كنيسة فى صنعاء المعروفة باسم القليس (Kalis) (أى كنيسة) وجمّلها أروع تجميل ، وأرسل إلى ملك الحبشة ينبئه بأنه بنى له كنيسة رائعة ، وأنه يعزم على تحويل الحجاج من مكة إلى صنعاء ، كما أرسل إلى إمبراطور بيزنطة - جستنيان - ليساعده ، فأرسل له بعض قطع المرمز لخرقة الكنيسة . ولما سمعت العرب بذلك ، قام رجل من كنانة واستطاع أن يدخل الكنيسة حيث عبث بمقدساتها ، فاستشاط أبرهة غضباً وصمم على هدم الكعبة ، وحشد جيشاً استخدم فيه الفيلة ، وهذه هى الحملة التى أُرِخ لها بعام الفيل حتى عام ٥٧١ م وأشير إليها فى القرآن الكريم « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . . . » وقد فشلت . وفى ذلك العام ولد النبىّ صلى الله عليه وسلم .

توفى أبرهة بعد ذلك وخلفه ولداه يكسوم ومسروق ، وخلال حكم مسروق قامت ثورة وطنية باليمن تزعمها ذو يزن ، ثم ابنه من بعده وهو سيف بن ذى يزن وابنه الآخر معديكرب ، انتهت هذه الثورة بطرد الأحباش من اليمن بمساعدة الفرس ، وأُخِذَ اليمن تابعة للفرس منذ عام ٥٩٠ م خلال حكم الملك الفارسى خسرو الثانى (٥٩٠ - ٦٢٨ م) ، وظلت كذلك حتى فتحها المسلمون عام ١٣ هـ (٦٣٤ م)^(٥٠) . ومنذ تلك الفترة بدأت دولة أكسوم الحبشية فى التدهور والانحلال^(٥١) .

Budge, pp. 263-265 (٤٩)

(٥٠) البداية والنهاية ج ٢ ص ١٦٩ - ١٧٦ ، ١٧٨ - ١٧٩ ؛ منتخبات فى تاريخ اليمن

ص ٥٥ ؛ الجواهر الحسان ص ١١

Trim., p. 42; Budge, pp. 262-9 (٥١)

تلك صفحة من تاريخ الحبشة وعلاقتها ببلاد العرب حتى قبيل ظهور الإسلام أى حتى مطلع القرن السابع الميلادى ، وهو القرن الذى شهد انتشار الإسلام والفتوحات الإسلامية .

فلما ظهر الإسلام واشتد إيذاء قريش للنبي وأصحابه ، ورأى الرسول مايصيب أصحابه من البلاء وأن عمه أبا طالب لا يستطيع أن يمنعهم مما هم فيه من بلاء ، قال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه »^(٥٢). وتذكر المراجع العربية أن هذا الملك الحبشى هو أحممه ابن الحر أو ابن أبجر وتفسر كلمة أحممة بكلمة (عطية)^(٥٣). وتؤكد تتفق المراجع الأجنبية على هذا الاسم Ella Asham أو Ella Saham وهو أبو أرماع (Armach)^(٥٤) الذى يعتبره Coulbeaux أنه الملك الحبشى المعاصر للنبي^(٥٥) وقد أورد السيوطى عدة أسماء له كلها متشابهة منها : صحمه وصحمه وأصحمه ومصحمه وأصخمه وأصحبه^(٥٦) .

ويرجح أن الرسول قد نصح أصحابه بالهجرة إلى الحبشة نظرا لمعرفة العرب بأرض الحبشة خلال الاتصالات التجارية القديمة ، يقول الديار بكرى : « وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش »^(٥٧) كذلك كان نهوض الحبشة للأخذ بيد المسيحيين المضطهدين باليمن أثر فى هذا الاتجاه الإفريقى ، وإلى هذا وذاك يضم تأثر ملك الحبشة بتعاليم المسيحية والرهينة اللتين وفدتا إليه من مصر :

(٥٢) ابن هشام : سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ج ١ ص ٣٤٣ ؛ السهيلي : الروض الأنف ج ١ ص ٢٠٤ .
(٥٣) تاريخ يعقوبى ج ٢ ص ٢٢ ؛ الروض الأنف ج ١ ص ٢٠١ ؛ صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٢

(٥٤) Budge, pp. 271-3; Trim., p. 46

(٥٥) Coulb., pp. 205-7

(٥٦) السيوطى : رفع شأن الحبشان (مخطوط رقم ٧٢٦ تاريخ تيمور بدار الكتب) ورقة ٤٨ ؛ انظر كذلك : تنوير الغبش .

(٥٧) الديار بكرى : تاريخ الخبيس فى أحوال أنفس نفيس ج ١ ص ٢٨٨

خرج المهاجرون الأولون قاصدين الحبشة ، في رجب من السنة الخامسة من البعثة
والثانية من إظهار الدعوة وذلك عام ٦١٥ م وعبروا البحر في مجموعات قليلة ، ويقال
إنهم استأجروا سفينة بنصف دينار^(٥٨) ومن أوائل هذا نفر عثمان بن عفان وزوجته
رقية بنت الرسول صلى الله عليه وسلم وهو من بنى أمية ، ومن بنى عبد شمس : أبوحذيفة بن
عتبة وامراته سهلة التي ولدت له بأرض الحبشة ابنه محمد ، ومن بنى أسد الزبير بن العوام ،
ومن بنى زهرة عبد الرحمن بن عوف ، ومن بنى عبد الدار مصعب بن عمر وغيرهم ؟ ثم
خرج جعفر بن أبي طالب وزوجته أسماء ، وهذه ولدت له بالحبشة ابنه عبد الله وتتابع
المسلمون ، حتى بلغ عدد المهاجرين نحو ٨٣ رجلا باستثناء أبناءهم الذين خرجوا معهم
صغاراً أو ولدوا بالحبشة^(٥٩) .

أمن المسلمون بأرض الحبشة وحمدوا جوار النجاشي وعبد الله ، وأحسن النجاشي
جوارهم . تقول أم سلمة : لما نزلنا بأرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي : أئمننا
على ديننا وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه^(٦٠) .

وقد ذكر بصدد هذه الهجرة كثير من الشعر يصف ما كان يقاسيه المهاجرون
من اضطهاد وما آل أمرهم إليه من إعزاز وتكريم ويتناول بعضه عتاب قریش
وتقريعها على كفرها وموقفها . من ذلك قول أحد المهاجرين وهو عبد الله بن الحارث
ابن قيس بن عدى :

كل امرئ من عباد الله مضطهد يبطن مكة مقهور ومفتون
إنا وجدنا بلاد الله واسعة تنجى من الذل والخزاة والهون

(٥٨) المصدر السابق .

(٥٩) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٤٤ - ٣٥٣ ؛ الروض الأتق ج ١ ص ٢٠٨ ؛ الخيس

ج ١ ص ٢٧٩ ؛ رفع شان الحبشان ورقة ٢٣

(٦٠) الروض الأتق ج ١ ص ٢١١ ؛ تنوير العشب .

وقوله :

تلك قريش تجحد الله حقه كما جحدت عاد ومدين والحجر^(٦١) .
ولا يزيد أن نستطرد في ذكر أمثال هجرات المضطهدين من أصحاب العقائد
والمذاهب فهذا أمر معروف في التاريخ ، فاضطهاد المسيحيين واضح على يد الأباطرة
الوثنيين مما كان من بين أسباب نشوء الرهينة والديرية ، واضطهاد أصحاب المذاهب
المختلفة ، ثم ما عرف في فجر العصور الحديثة من اضطهاد أصحاب العقائد المخالفة مما
كان من بين نتائج نشوء بعض المستعمرات الإنجليزية على الساحل الشرقى لأمريكا ..
وهكذا ...

أما قريش ، فقد آلمها أن ترى أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم آمنين بأرض
الحبشة ، حيث أصابوا الدار والقرار ، فآتمرت بينها وقر رأيها على إيفاد سفارة إلى
النجاشي .. تطلب عودة المهاجرين ، وعضوا هذه السفارة رجلان جليدان هما : عمرو
ابن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ؛ جمعت لهما قريش الهدايا للنجاشي ورجال حاشيته ،
ولما علم أبو طالب بما استقر عليه عزم قريش ، بعث برسالة إلى النجاشي يوصيه بآبنته
وصحبه ومما جاء في هذه الرسالة :

تعلم ، آيتَ اللّٰهين ، أنك ماجد كريم فلا يشقى لديك المجانب
تعلم بأن الله زادك بسطة وأسباب خير كلها بك لازب
وأنك فيض ذو سجال غزيرة ينال الأعادى نفعها والأقارب^(٦٢)

اقتضت خطة قريش أن تبدأ السفارة بتقديم الهدايا أولا إلى بطارقة النجاشي
قبل الاتصال به حتى تضمن معاونة هؤلاء البطارقة ، تقدم القاصدان إلى البطارقة
بقولهما :

(٦١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٥٤ - ٣٥٧ ؛ المصادر السابقة .

(٦٢) تاريخ يعقوبى ج ٢ ص ٢١ - ٢٢ ؛ الروض الأثف ج ١ ص ٢١١ - ٢١٢ ؛

الخمس ج ١ ص ٢٨٩ ؛ الطراز المنقوش ورقة ١٧ ؛ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٥٦ - ٣٥٧

« إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردوهم إليهم ، فإذا كلنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم » (٦٣) .

وعد البطارقة بالإيجاب ؛ وفي حضرة الملك أعاد السفيران مقاتلتهما السابقة وأمن البطارقة على ما قالوا ، غير أن النجاشي غضب ، قائلاً : « لا ها الله إذلاً أسلمهم إليهما ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادى واختاروني على من سواى ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولون ، أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا غير ذلك منعهم منهم وأحسن جوارهم ما جاوروني » .

استدعى النجاشي المهاجرين وسألهم : ما هذا الدين الذى فارقم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل ؟ وهنا انبرى جعفر بن أبى طالب وتحدث عن المهاجرين مجيباً النجاشي :

« أيها الملك ! كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ، وبأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد وآباءنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين

ديننا خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا ألا
نظلم عندك أيها الملك» (٦٤).

ولما سأله النجاشي عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم عن الله ، قرأ عليه
صدرا من سورة مريم : كهيعص ، ذكر رحمة ربك عبده زكريا . . فبكى النجاشي
كما بكى من حوله من أساقفة ثم عقب بقوله : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من
مشكاة واحدة والتفت لسفيرى قريش رافضا ما طلبا بقوله . . أدفع إليكم قوما في
جوارى على دين الحق وأنتم على دين الباطل ؟ انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا
يكادون (٦٥).

حينئذ أيقن السفيران بفشل ما سفرا فيه ، فقال عمرو لزميله : « والله لآتينه غدا
بما أستأصل به خضراءهم » وحاول زميله صرفه عما اعتزم القيام به بحجة أن لهم أرحاما
وإن كانوا قد خالفوا قومهم ، ولكن عمرو لم يعدل عن تصميمه ، وغدا على النجاشي
صبيحة اليوم التالى وقال له : « إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما ، إنهم يزعمون
أن المسيح عبد مملوك » حقيقة تغير قلب النجاشي ، لكنه لم يشأ أن يتخذ بشأنهم قرارا
حتى يناقشهم ، فاستقدمهم وسألهم عما يقولونه في عيسى ، فأجاب جعفر : نقول فيه
الذى جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلته ألقاها إلى
العدراء البتول (٦٦) فضرب النجاشي الأرض بيده وأخذ منها عودا ثم قال : « والله ما عدا
عيسى بن مريم عما قلت هذا العود ! اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي (أى آمنون) »
وكأنه أراد أن يقطع كل حديث ومحاولة بشأن المهاجرين ، فرد على قريش هداياها وقال :

(٦٤) اليعقوبى ج ٢ ص ٢١ ؛ الخيسى ج ١ ص ٢٩٠ ، ٢٩١ ؛ الطراز المنقوش ورقة ١٨ ؛

رفع شأن الحبشان ورقة ٢٤ - ٣٠

(٦٥) اليعقوبى ج ٢ ص ٢١ ؛ ابن الأثير ج ٢ ص ٣٢ ، ٣٣ ؛ الروض الأنف ج ١ ص ٢١٣

(٦٦) الخيسى ج ١ ص ٢٩١ ، ٢٩٢ ؛ اليعقوبى ج ٢ ص ٢١

« لا حاجة لي بها ، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فأخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه » (٦٧) .

على هذا النحو كانت حماية النجاشي للمهاجرين الأولين من المسلمين أوائل القرن السابع الميلادي ولم ينثن هؤلاء المسلمون عن رد صنيعه حتى لاحت الفرصة وكان ذلك عندما نشب نزاع بينه وبين منافس له على العرش - لعله من أبناء عمه - فخشي المسلمون أن ينتصر المنافس وهو لا يعرف من حق المهاجرين ما يعرفه النجاشي ومن ثم انضموا إليه في القتال حيث برز الزبير بن العوام وصحبه حتى انتصر صاحبهم (٦٨) .

ظل المهاجرون في أرض الحبشة ، وولد لهم الأولاد بل أن أولاد جعفر بن أبي طالب قد ولدوا بأرض الحبشة وقد عاد بعضهم على أثر ظهور أمر النبي صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة (٦٩) وفي عام ٦٢٧ م ، وهي السنة الخامسة للهجرة ، أرسل النبي صلى الله عليه وسلم للنجاشي رسولا من قبيله هو عمرو بن أمية الضمري لإعادة المهاجرين (٧٠) ويقال إن عبيد الله بن جحش وهو من المهاجرين ظل بالحبشة وارتد عن الإسلام واعتنق المسيحية ، وأخذ يغري المسلمين على الارتداد وتعتبر ردة هذه أول ردة في الإسلام (٧١) .

(٦٧) يشير النجاشي في إجابته هذه إلى قصة زوال الملك عنه ورجوعه إليه ، وتلخص في ثورة قامت بالحبشة ، انتهت بقتل أبيه وتولية عمه ، فعاش ابن القتل في رعاية عمه حتى غلب عليه أمره بحذقه ونبوغه ، وحينئذ خشي أنصار عمه من أن ينتهي الأمر بنقل الملك إليه ، فينتقم منهم لمقتل أبيه ، ولذلك سعوا فيه عند عمه حتى أذن لهم ببيعه ، فباعوه ، وفي ذلك الوقت قتل عمه بصاعقة ، ولم يكن هناك من أبناء ذلك العم من يصلح للملك ؛ ولذا أسرع الأحباش واسترجعوا من باعوه وولوه ملكا عليهم (الروض الأنف ج ١ ص ٢١٣ ؛ سيرة ابن هشام ص ٣٦٢ - ٣٦٣ ؛ الخميس ج ٢ ص ٢٩١ - ٢٩٢ ؛ رفع شان الحبشان ورقة ٤٩ - ٥٠) .

(٦٨) المراجع السابقة .

(٦٩) الخميس ج ١ ص ٢٩١

(٧٠) (الروض الأنف ج ١ ص ٢١٤ ؛ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٢)

(٧١) الطراز المنقوش ورقة ٢٢-٢٤

أما عن إسلام النجاشي فقد جاء بصدده أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل في عام ٦ هـ كتابا إليه يدعوه فيه إلى الإسلام ، ورسوله هو عمرو بن أمية ونص الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة - سلم أنت ، فإنني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإنني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاتة على طاعته ، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني ، فإنني رسول الله ، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرأ ونفراً معه من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر ، فإنني أدعوك وجنودك إلى الله ، فقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصحي ، والسلام على من اتبع الهدى » (٧٢) .

أجاب النجاشي بهذه الرسالة التي أظهر فيها قبوله للإسلام ، ونصها : « بسم الله الرحمن الرحيم : إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمه - سلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، لا إله إلا الله الذي هداني للإسلام . أما بعد ، فقد وصلني كتابك يا رسول الله ، فاذكرت فيه من أمر عيسى بن مريم ، فو رب السماء والأرض أن عيسى ابن مريم لا يزيد على ما ذكرت ثفروقا واحدا ، إنه كما قلت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وشهدنا بأنك رسول الله ، صادقا مصدقا ، وقد بايعتك بواسطة ابن عمك جعفر وأسلمت على يديه لله رب العالمين ، وقد بعثت إليك بابني أرها بن الأصحم بن أبجر ، فإنني لا أملك إلا نفسي وإن شئت أن آتيك ففعلت يا رسول الله فإنني أشهد أن ما تقوله حق ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ... »

وعند ما تسلم الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الرسالة ، علق بقوله : « اتركوا الحبشة ما تركوكم » . ولما بلغه نبأ وفاة النجاشي عام ٩ هـ (٦٣٠ م) قال : « توفي اليوم

(٧٢) ابن جرير الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ١٠١ ؛ ابن خلدون : تاريخه

ج ٢ ص ٣٦ - ٣٧ ؛ الطراز المققوش ورقة ١٩

رجل صالح من الحبشة ، فلهما فصلوا عليه » (٧٣) . وهناك رسالة أخرى أرسلها النبي صلى الله عليه وسلم لخطبة أم حبيبة بنت أبي سفيان وهي التي ارتد زوجها عبد الله بن جحش فأجاب النجاشي ودفع لها الصداق وأرسلها محملة بالهدايا (٧٤) .

أما أن النجاشي أعلن قبوله للإسلام فهذا أمر يكاد يكون محققا إذ أجمعت عليه المراجع العربية تقريبا ، أما أنه اعتنق الإسلام فعلا وآمن وترك النصرانية ، فهذا ما لا يمكن التحقق منه إثباتا أو نفيًا ، ويرى بعض الحديثين أن النجاشي أظهر الإسلام هو وأساقفته لهدف سياسي بحث لا بدافع العقيدة الدينية ، فقد رأى انتصارات الإسلام الساحقة داخل الجزيرة العربية ، وخشى من امتداد الفتوح الإسلامية إلى بلاده ، وهو في وضع لا يمكنه من الدفاع أو المقاومة كما أنه لا يجب أن يدخل في حرب تنجلي عن قتل كثير من رعاياه ومن ثم كانت دبلوماسية في إظهاره للإسلام وإرسال الهدايا وإنقاذ بلاده وهمايتهما من التعرض للغزو والفتح . ويدعم صاحب هذا الرأي تفسيره بأن الحبشة ، من بين سائر بلاد الشرق الأوسط ، استطاعت أن تحتفظ بنصرانياتها بعد حكم أرماع (٧٥) وعلى ذلك يمكن أن يؤرخ لدخول الإسلام في الحبشة بالهجرة الأولى وإظهار النجاشي أرماع (أصحمة) للإسلام وكثر توافد المسلمين بعد ذلك للأهداف التجارية ، بعد أن دانت لهم بلاد العرب ، وأضحوا يتحكمون في طرق القوافل داخل الجزيرة العربية ولا سيما بين عدن وصنعاء ، كما أسهموا بنشاط كبير في التجارة الشرقية بين مصر والهند عن طريق البحر الأحمر . وعبرت مجموعات قليلة من تجار العرب إلى الساحل العربي للبحر الأحمر ، كما اخترق عدد من هؤلاء ، الحدود الحبشية وأسسوا

(٧٣) الطبري ج ٢ ص ٢٩٤ ؛ ابن خلدون ج ٢ ص ٣٧ ؛ الجواهر الحسان ص ١٣-١٤ ؛

أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٤٢ ؛ صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٢ ؛ رفع شان الحبشان ورقة ٥١ - ٥٤

(٧٤) الخميس ج ١ ص ١٤٢ ؛ صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٢ ؛ السبوطي : أزهار العروش

في أخبار الحبش (مصور عن نسخة بالأسكوريال ميكرو فلم رقم ٢٧ تاريخ بدار الكتب) - غير مرقم الصفحات .

لهم مراکز استقرار بالتدريج ، بل إن العرب المسلمين استطاعوا بنشاطهم أن يتحكموا في ميناء عدوليس (Adulis) وهو ثغر الحبشة ، فأدى ذلك إلى حرمان الحبشة منه ، وإلى قطع صلاتها بالعالم الخارجى إلا عن طريقهم ، فلم يعد هناك مخرج للمنتجات الحبشية ، مما أدى في نهاية الأمر إلى القضاء على تجارة الحبشة الخارجية ، وإلى قلة عدد التجار الأجانب من غير العرب بدولة أ كسوم^(٧٦) فضعف العنصر الإغريق وزالت اللغة الإغريقية التي كانت لغة الثقافة بالعاصمة وذبلت بزوالها الحضارة الهلينية ويقال إن آخر كتاب ترجم عن اللغة الإغريقية إلى لغة الجعز هو كتاب المسائل الدينية وذلك عام ٦٧٨م كما تركت دراسة الآداب القديمة ، وقل بناء الكنائس ولم تعد تضرب عملة جديدة. وآخر عملة ضربت في أ كسوم تحمل اسم جرسم (Gersem) وحازا الثاني (Hataz) ويرجع تاريخ هذه العملة إلى الفترة بين بداية القرن الثامن والقرن العاشر الميلادى . اقترن هذا التدهور العام بضعف السلطة المركزية وقيام الحكام المحليين بمنافسة بعضهم البعض والتوسع على حساب جيرانهم؛ ويعتبر أولئك الحكام أتباعا أو أفضالا ، (Vassals) للملك لا يخضعون له إلا إذا كان قويا قادرا على بسط نفوذه عليهم . هذا وقد ضعف أمر العقيدة المسيحية نفسها برجوع كثير من سكان المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية عن المسيحية والعودة إلى اعتناق الوثنية القديمة^(٧٧) .

وفي وسط هذه الغمرة التي انحطت فيها مملكة أ كسوم كان الإسلام يسير بخطى واسعة من الساحل إلى الداخل وتكونت للمسلمين مراکز استقرار على طول الساحل الشرقى لإفريقية امتدت من سواكن على ساحل البحر الأحمر إلى مقدشو ومركا وبرافا وممبسا وزنبار وكلوه على المحيط الهندى .

امتزج المسلمون بالوطنيين وصاعروهم ، فأخذ الإسلام ينتشر تدريجيا ، واعتنقته

ibid, p. 274 (٧٦)

Budge, p. 274; Trim., pp. 47-8 (٧٧)

عناصر الساهو والعفر شرق الحبشة ، كما أنه امتد إلى مناطق السيدامو وشوا الشرقية جنوب الحبشة ، وسرعان ما تأثرت به القبائل الصومالية بعد ذلك^(٧٨) .

وربما كان أول احتلال رسمي لبعض المناطق الاستراتيجية في البحر الأحمر تجاه الساحل الإفريقي ما حدث عام ٥٨٣ (٧٠٢ م) على عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك الأموي (٦٥ - ٥٨٦ = ٦٨٥ - ٧٠٥ م) كان ذلك حين تعرضت سواحل جزيرة العرب وتجارة العرب لنهب القراصنة الأحباش ، فقد سطا هؤلاء على ميناء جدة واستباحوها في ذلك العام ، مما أدخل الرعب والفرع في قلوب سكان مكة ، وحينئذ اضطر الخليفة إلى العمل على الضرب على أيديهم بوسائل فعالة ، واستقر الرأي على احتلال مجموعة جزائر دهلج تجاه ميناء مصوع ، وتتكون هذه المجموعة من عدة جزائر أهمها : دهلج وحرث وكباري ودركه ونوره ونقره وكرمان ، والأخيرة أكبر هذه المجموعة^(٧٩) . ورغم أن الاحتلال العربي الإسلامي قد تم فإن هذا لم يحل دون تكرار هجمات القراصنة من ذلك هجومهم على ثغر جدة عام ١٥٣هـ (٧٧٠ م) فاضطر الخليفة أبو جعفر المنصور إلى إرسال جيش لتفريق شملهم^(٨٠) ..

أما منطقة البجة ، فالمعروف أن أول اتصال بها كان يوم هادنهم عبيد الله بن الحبش السلولي ، وكتب لهم كتابا فرض عليهم به جعلاً إذا نزلوا بريف مصر تجارتا غير مقيمين كما اشترط عليهم ألا يقتلوا مسلماً أو ذمياً ؛ فكثر المسلمون في بلادهم وشجعهم على ذلك غنى منطقة البجة بمعادن الذهب والزمرد والفضة والنحاس والرصاص والحديد، امتزج المسلمون بالبجاويين وصاهروهم وكان من نتيجة هذا دخول كثير من أهل البجة في الإسلام ولو أن إسلامهم كان ضعيفاً كما أنهم لم يكفوا أذاهم عن المسلمين وهذا ما حمل الخليفة عبد الله المأمون على إرسال جيش لتأديبهم ، قام هذا

(٧٨) المسعودي : مروج الذهب ج ١ ص ٥١ ؛ Trim., pp. 51, 60

(٧٩) الإلام ص ٢٢ ؛ بوصيلي ص ٧ - ٨ ؛ Trim. 46-7

(٨٠) الجواهر الحسان ص ١٥

الجيش بقيادة عبد الله بن الجهم وقمعهم ثم وادعهم بكتاب كتبه للمكهم كنون بن عبد العزيز المقيم في هجر وذلك عام ٢١٦ هـ (٨٣١م) ومما جاء في هذا الكتاب ... «هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين .. لكنون بن عبد العزيز عظيم البجة بأسوان ... أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر إلى حد ما بين دهلك وباضع ملكا للمأمون .. وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمر المؤمنين ... وعلى أن تؤدي إليه الخراج في كل عام، على ما كان عليه سلف البجة وذلك مائة من الإبل أو ٣٠٠ دينار ..» ثم حذرهم من الاعتداء على المسلمين ، وإن دخل أحد من المسلمين تاجرا أو مقيما أو محتازا أو حاجا فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم .. ولا تمنعوا أحدا من المسلمين الدخول في بلادكم للتجارة فيها برا وبحرا ... لا تهدموا شيئا من المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر وسائر بلادكم طولا وعرضا .

غير أن غاراتهم لم تنقطع فتجددت على عهد المتوكل الذي أسرع بإرسال جيش بقيادة محمد بن الله القمي عام ٢٤١ هـ (٨٥٥م) قمعهم به وصالحهم وتضمن كتاب الصلح عدم التعرض لأحد من المسلمين يريد العمل في استغلال المعادن .

تزايد عدد المسلمين المهاجرين والمقيمين في منطقة المعادن بالبجة وأشهر القبائل العربية التي استقرت بها قوم من ربيعة وقحطان إلا أن قبائل ربيعة كانت أقوى العناصر حتى سادت وغلبت على من جاورها من العرب القحطانيين بحيث لم يأت القرن الرابع الهجري إلا وكان صاحب مناجم الذهب وغيره من المعادن هو بشر بن مروان بن إسحاق بن ربيعة وازدادت قوته حتى كان يركب في ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن (٨٢)

(٨١) المقرئى : المخطوط ١ ص ١٩٤-١٩٥

(٨٢) مهروج الذهب ١ ص ١٨٩ ؛ صبح الأعشى ٥ ص ٢٧٣-٢٧٤

ومن حيث العناصر البجاوية ومدى انتشار الإسلام بينها فالواضح أن العنصر السائد في منطقة هجر هو عنصر نقيس البجاوى ومن فروع نقيس الحدارب وهؤلاء الأخـيرون هم الذين أسلموا وعاونوا العرب المشتغلين بالمعادن. وهناك من يقول إن الحدارب من العرب ، وهم يتحكمون في سواكن ولهم اتصال بسلطين مصر من الماليك ، ويعرف زعيم الحدارب لدى أولئك السلطين باسم الحدربى^(٨٣) أما الفروع الأخرى لنقيس أمثال عماعر ومناسة ، والزنافج ، فقد بقيت على الوثنية مع مسالمتها للعرب^(٨٤) .

ومن المراكز الإسلامية التي تأسست في منطقة شوا الشرقية مملكة يحتمل أنها قامت حوالى نهاية القرن الثالث الهجرى ونهاية القرن التاسع الميلادى (٢٨٣-١٩٦) بزعامة أسرة عربية تنتسب إلى قبيلة مخزوم القرشية ، وهي التي ينسب إليها خالد بن الوليد ، يقال إن أسلاف هذه الأسرة هاجروا عبر البحر الأحمر على عهد خلافة عمر بن الخطاب^(٨٥) كذلك قامت مشيخات إسلامية أخرى في تلك المنطقة وما يليها شرقا في عدال (Adal) ومورا (Mora) وهوبات (Hobat) وجيدايا (Jidaya) غير أن هذه جميعا لم تعمر طويلا نظر للخلافات والتنافس فيما بينهما فضلا عن أن عنايتها كانت منصبه على شئون التجارة ولا سيما تجارة الرق، فسرعان ما طوتها أقوى الإمارات الإسلامية في الوطن الحبشى وهي أماره أوفات^(٨٦) .

ولعل الفترة البارزة في التوسع الإسلامى في إفريقية الشرقية ، تقع بين القرنين العاشر والثانى عشر الميلاديين ، فهذه فترة التوسع المنظم للإسلام دينا ودولة من ناحية نشر العقيدة الإسلامية وتدعيم سلطان الممالك الإسلامية ولوعلى حساب بعضها البعض،

(٨٣) صبح الأعشى - ٥ ص ٣٧٤

(٨٤) مروج الذهب - ١ ص ١٨١ ؛ اليعقوبى - ١ ص ١٥٥ ؛ خطط - ١ ص ١٩٦ -

١٩٧ ؛ Trim., pp. 50-51

Trim., p. 58 (٨٥)

(٨٦) انظر ما يلى :

داخل الوطن الأثيوبي ، فثلاث تحولت منطقة جوبا إلى الإسلام حوالى عام ١١٠٨م ،
وامتد سلطان المسلمين حتى منطقة البحيرات العظمى^(٨٧) .

واللاحظ أن الرقعة الإسلامية بإفريقية الشرقية عامة، قد أحاطت بالحبشة من
الناحية الشرقية « وتقابل اليمن في الجزيرة العربية » . ومن أجل هذا الوضع الجغرافي
نعمها المؤرخون بمنطقة « الطراز الإسلامى » لأنها على جانب البحر كالطراز له^(٨٨) .

اشتهر في هذا الطراز إمارات سبع أو ممالك سبع وهى : أوفات، دوارو وأراييني
وهديه وشرخا وبالى وداره^(٨٩) وهذه عدا الشيخات الإسلامية الممتدة على الساحل
مثل عوان ومقدشو وكلوه وغيرها .

وقبل أن تناول الحديث عن كل منها تفصيلا نقرر بعض الملاحظات الهامة :
إن تكوين هذه الممالك قد اتسم بالطابع السلمى التجارى أو الاقتصادى بصفة
عامة إذ امتلك المسلمون ناصية التجارة الداخلية والخارجية^(٩٠) ولم تكن فى نشأتها
وتوسعها عسكرية أو سياسية « فى أول أمرها على الأقل » . ويرجع ذلك إلى أن
الحبشة هى موطن الهجرة الإسلامية الأولى « حيث أصاب المسلمون الدار والقرار »
فلم تكن دار جهاد .

ثم إن هذه الممالك ارتبطت بالعالم الإسلامى الخارجى وتوطدت صلتها به عن طريق
التجارة والحج وانتقال طلاب العلم للدراسة فى المدينة المنورة ودمشق والقاهرة . وصار
لرواد الثقافة الإسلامية أروقة خاصة بهذه المراكز فهناك رواق أهل الزيلع بالمسجد
الأموى بدمشق . « يقول ابن بطوطة » وفى شرق المسجد مقصورة كبيرة فيها صهريج

Trim., p.62 (٨٧)

(٨٨) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٤

(٨٩) العمري : مسالك الأبصار ج ١ ص ١١-١٢ ، النسخة المخطوطة ج ٢ ق ٣ ورقة ١٨٤

(٩٠) بوصلى ص ٨-٩

ماء وهي لطائفة الزبالة السودانية^(٩١) . وكذلك أفرد رواق لهؤلاء بالأزهر ، يعرف برواق الجبرية .

ورغم هذه الصلة والارتباط ، فإنها كانت فيما بينها مفككة الأوصال ، لم يجمع بينها سوى الرباط الروحي ، فكثرت المنافسات واشتد النزاع حتى في داخل الإمارة الواحدة مما أضعفها جميعا . يقول عبد الله الزبلي « لو اتفقت هذه الملوك السبعة واجتمعت ذات بينهم قدروا على المدافعة أو التماسك ولكنهم مع ما هم عليه من الضعف وافتراق الكلمة ، بينهم تنافس ومنهم من يترامى إلى صاحب المحرمة ويميل إليه بالطباع^(٩٢) . وبجانب هذه المنازعات تعتبر إماراتهم فقيرة من حيث الموارد الطبيعية رغم تحكمها في التجارة » وفي هذا الصدد يقول المقرئ - « وكلها ممالك ضعيفة قليلة المتحصل »^(٩٣) .

أما الوضع السياسي لهذه الممالك فهي خاضعة لملك الحبشة ، ويعد المؤرخون أمراءها من جملة التسعة والتسعين الذين هم تحت يده ، وهو بهم تمام المائة . ورغم أن الملك في هذه الإمارات وراثي في أسر معينة^(٩٤) إلا أن أمراءها لا يتولون العرش إلا بأمر من الخطي وموافقة ، فإذا مات أحدهم وكان من أهل بيته من يصلح للملك ، توجه إلى الخطي متزلفا إليه ، ومن ثم لجميع أمراء هذه الممالك لا يخرجون عن كونهم نوابا له^(٩٥) .

وعلى هذه الممالك ضرائب معينة في كل سنة تدفع لملك الحبشة من القماش والحريز والكتان مما يجلب إليها من مصر واليمن والعراق^(٩٦) ، وتنفرد إمارة هدية بجزية من

(٩١) ابن بطوطة : تحفة النظار ج ٢ ص ٧٣

(٩٢) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٢ - ٣٣٣ ، مسالك الأبصار (مخطوط) ج ٢ ق ٣

ورقه ٤٧٧

(٩٣) الإلام ص ٦

(٩٤) انظر سلطنة بالي .

(٩٥) الإلام ص ٨ ، صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٢

(٩٦) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٣

نوع خاص ، وهى تقديم بنت من بناتها المسلمات فى كل سنة ينصرها الخطى لنفسه ، وقد جرت هذه العادة بمقتضى معاهدة . يقول أهل هدية : « وحكم علينا . . ونطيعه مخافة أن يقتلنا ويخرب مساجدنا ، وإذا أرسل إلينا الذى يتقبل البنت والمال ، أخرجنا له البنت على السرير ونغسلها ونكفنها بثوب ونصلي عليها ونحسب أنها ميتة ، ونعطيها له ، فإننا وجدنا آباءنا وأجدادنا يفعلون ذلك » (٩٧) وهذا رغم ما هو معروف عن هدية بأنها أكثر الإمارات الإسلامية خيلا ورجالا ، ولعل أرجح تفسير لهذا التقليد هو ما هم عليه من ضعف الدين (٩٨) .

أما نظم الحكم ومظاهره فى هذه الممالك فهى متشابهة من حيث إن الملوك يتصدون للحكم بأنفسهم وإن كان لديهم القضاة والعلماء ؛ وجرت العادة أن يجلس الملك على كرسى من حديد مطعم بالذهب وحوله أكبر الأمراء جلوس فوق مقاعد أقل ارتفاعا من مقعد الملك ، وبقية الأمراء وقوف ، ولهم مواكب تقدمها الحجاب والنقباء لإفساح الطريق ويدق بالطبول أمام الملك وهذه الطبول معلقة فى أعناق الرجال وتسمى الواحدة منها بالطواط وأعظم هؤلاء الملوك ملك أوقات . إذا مشى توكل على يدي رجلين . ونظام الأعطيات للجند ، ليس كما هو فى سلطنة المماليك المعاصرة لهم ، من حيث الإقطاعات أو الجوامك أو نحوها . وإنما لجنود هذه الممالك دواب ساعة ، ومن شاء منهم الزراعة فليزرع واستغل الأرض دون اعتراض ، وجرت عادة الملك أن يوزع على جنوده وأمراء جيشه بقرأ فى كل عام وأكثر ما يعطى للأمير الكبير ٢٠٠ بقرة » (٩٩) .

ومن حيث زى هذه الممالك الإسلامية : جرت العادة أن يعصب الملك رأسه بمصائب من حرير تدور برأسه مع بقاء وسط رأسه مكشوبا ، أما الجنود والأمراء فلهم عصائب

(٩٧) عابدين ص ١٥٧-١٥٨

(٩٨) انظر ما يلى

(٩٩) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٤-٣٣٥ ، مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٤٨١

من قطن ، ويلبس الفقهاء المعائم ، ويلبس العوام الكوافي البيضاء ويركبون الخيول بغير سرج ، وإنما توضع قطع من الجلد على ظهورها وسلاحهم الحراب والنشاب^(١٠٠). وهذه الممالك عامة زراعية ، تعيش عيشة متوسطة ، ومساكنها متواضعة تبني من الطين والاحجار والخشب ؛ وربما لخص المقرئى مظاهر أمرائها بقوله : « لافخامة لأموهم »^(١٠١) ومن ناحية أخرى نلاحظ أن أهلها يحافظون على دينهم وعندهم المساجد والجوامع حيث تقام الجمع والجماعات ؛ ومع وجود العلماء والفقهاء والزهاد فليس لديهم مدارس أو خاتقات أو ربط أو الزوايا على النحو المعروف في مصر المعاصرة . والمذهب السائد فيها جميعا هو المذهب الحنفى باستثناء أوقات فإن غالب أهلها على الشافعية مع وجود الأحناف^(١٠٢) .

أما التعامل فى سائر هذه الممالك فهو بالمقايضة سوى أوقات التى تجرى فيها العملة المصرية ، ودوارو حيث يوجد نوع من العملة وحدتها قطعة من الحديد تسمى الحكنة وجمعها حكنات ، وهى كما يصفها العمرى والمقرئى ، طول الإبرة فى عرض ثلاث إبرات ويبلغ ثمن البقرة مثلا بهذه الحكنات من ٧٠٠ - ٥٠٠٠ حكنة ورأس الغنم بثلاثة آلاف وهكذا^(١٠٣). وربما كانت الحكنة معروفة فى سائر الممالك الإسلامية بالحبشة ومعترف بها إلا فى أوقات^(١٠٤). ووحدة الكيل مكىال يسمى الرابعة وبعادل الوية بالكيل المصرى كما وإن وحدة الموازين هى الرطل وزنته اثنتا عشرة أوقية ، كل أوقية عشرة دراهم وأسعارها بصفة عامة رخيصة حتى قيل إن باستطاعة الإنسان أن يشتري حمل بفل من الحنطة بدرهم ، وأما الشعير فلا قيمة له^(١٠٥) .
نعرض بعد ذلك لهذه السلطنات كل سلطنة على حدة^(١٠٦) :

(١٠٠) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٣-٣٣٤

(١٩١) الإلام ص ٦

(١٠٢) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٤ ، الإلام ص ٧

(١٠٣) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣١ ، الإلام ص ٧

(١٠٤) مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٤١١ ؛ صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣١

(١٠٥) المصادر السابقة .

(١٠٦) انظر الخريطة .

سلطنة أوفات: تعتبر أقوى سلطنة إسلامية قامت في الحبشة، بسبب تحكمها في الطريق التجاري الذي يربط الداخل بميناء زيلع، وقد أسسها قوم من قريش من بني عبدالدار أو من بني هاشم من ولد عقيل بن أبي طالب، قدم أولهم من الحجاز واستوطن مدينة أوفات أو لوفات، وقد اشتهر قوم منهم بالصلاح، وظهر من بينهم رجل يسمى عمر ويلقب «ولشمع»؛ حكم مدينة أوفات وأعمالها واعترف بسلطان النجاشي الذي ولاه لما نبه ذكره؛ ظل على ذلك حتى قوى أمره؛ ومدينة أوفات هي جبرة أو جبرت من أكبر مدن الحبشة وتقع غربى زيلع.

ويبدو أن تاريخها لم يتضح إلا حوالى عام ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) حين أورث عمر هذه السلطة لأولاده الأربعة أو الخمسة الذين تولوا عرشها واحداً بعد آخر وذلك بموافقة ملك الحبشة. ومن هؤلاء الورثة وسلاتهم من بعدهم من خرج على طاعة الخطى، ومنهم من سار وفق إرادته وأوامره، وأول من خرج منهم على سلطان ملك الحبشة: على، حفيد عمر ولشمع، لكنه لم يلبث أن عاد لطاعته حين عزت أنصاره. كما أن أول من استبد بالأمور وحارب ملك الحبشة فعلاً وأسر الكثير من عساكره وغنم من أمواله: حق الدين الذى استطاع أن يجمع حوله الناس وأن يهزم جيوش الملك الحبشى سيف أرعد (١٣٤٤ - ١٣٧٢ م). ثم إن حق الدين هذا أول من خرج على أهله وحاربهم فقد اشتهر فى أول أمره بالصلاح والتقوى ثم ما لبث أن رأى انصراف جده على عنه، وكرهية عميه له وهما: ملا أصفح وأبو بكر. انتهى أمره بإخراجه من مدينة أوفات ليقوم بحماية الضرائب ببعض النواحي التابعة لها، وهناك عمل على تدعيم قوته وتكوين عصبة قوية من الأتباع، استطاع بهذه العصبة أن يحارب عمه أبا بكر ويقتله، فاستنجد العم الآخر ملا أصفح بسيف أرعد لكنه انتصر عليه، وقتل هذا العم. وأخيراً هجر حق الدين مدينة أوفات العاصمة، وأمر الكثير من أهلها بالهجرة معه إلى عاصمة أخرى أسسها فى منطقة شوا، وسماها وحل، حيث سكن وأسكن من

هاجر معه من أوفات ، ومنذ ذلك الوقت انحطت مدينة أوفات وتخربت ولم تعد دار ملك^(١٠٧) .

والمعروف أن مدينة أوفات هي جبره أو جبرت ، وغلب اسمها على المنطقة المحيطة بها ، فيقال أوفات أو جبرت^(١٠٨) ويقصد بذلك جميع المنطقة بما فيها ميناء زيلع^(١٠٩) ، وتعتبر هذه الإمارات أقرب الإمارات الإسلامية في الحبشة ، إلى السواحل المسامتة لليمن وإلى مصر . وسultan هذه الإمارة أقوى السلاطين المسلمين المجاورين له ، فكانوا يدينون له بالإحترام والتقدير ، بل إن الجميع كما يقول القلقشندي : « منقادون إليه »^(١١٠) .

تبلغ قوة هذا السلطان العسكرية نحو ١٥ ألف فارس وأكثر من ٢٠ ألف راجل^(١١١) وتتبعه إمارتان إسلاميتان صغيرتان هما : مورا (Mora) وعدال (Adal) ورغم أنه ليس من المعروف بدقة ، الوقت الذي اعتنق فيه رعايا أوفات الإسلام ، إلا أنه من أوفات وماحققتها أخذ الإسلام يتسرب وينتشر في منطقة شوا المحاذية غربا^(١١٢) .

أما الأحوال العامة لهذه السلطنة ، فهي خصبة التربة موفرة الماء من المطر ولها نهر صغير يجري فيها ، ومن منتجاتها قصب السكر والفاكهة والخضروات والحبوب مثل الحنطة والشعير والذرة . وتعتبر من حيث الأسعار رخيصة حتى إن عرجون الموز الذي يضم نحو ١٠٠ موزة يباع بربع درهم ، كما يباع طابق اللحم بدرهم ونصف ، وزنة الطابق ٣٠ رطلا^(١١٣) . وتجري المعاملة في أوفات بدنانير مصر ودراهمها الواصلة

(١٠٧) الإلام ص ٩ - ١١ ، ٢٦ ؛ مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٤٧٨ - ٤٨١

(١٠٨) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٥

(١٠٩) الإلام ص ٦

(١١٠) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٢

(١١١) مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٤٧٧ ؛ المصادر السابقة .

(١١٢) Trim. , p. 67

(١١٣) الإلام ص ٦

إليها صحبة التجار ، وكذلك تتعامل بالذهب الذي يجلب إليها من منطقتي دامتوت وسحام وتساوى الأوقية منه من ٨٠ - ١٢٠ درهما على قدر جودة الذهب . أى أنه ليس لأوفات سكة مضروبة ، لأنه لو ضربت إحدى هذه الإمارات سكة في بلادها لم ترج في بلاد غيرها ويتكلم أهل أوفات العربية والحبشية ودينهم الإسلام على المذهب الشافعى مع وجود بعض الأحناف بينهم^(١١٤) .

وسلطنة أوفات هى التى ترعمت حركة الجهاد ضد الحبشة ، ولو أنها خضت فترة من الزمن لملكة دامتوت الوثنية ، ولكن هذا الخضوع لم يدم طويلا ، إذ وقع في مطلع تكوينها على عهد مؤسسها ولشمع ، ثم لم تلبث أن استعادت سيادتها واستقلالها بل واستطاعت أن تستقل عن الحبشة^(١١٥) .

سلطنة بالى: جنوب سلطنة دارة ويحدها شمالا نهر وبي ومن الجنوب نهر جرانالى دوريا، وبهذا الوضع الجغرافى تتحكم فى وداى الصومال ، والعنصر الغالب فى سكانها عنصر السيداما ويسكن جنوبه فريق من عنصر الجالا ، وتعتبر هذه السلطنة أكثر بلاد الزيلع خصوبة وتختلف عن شقيقاتها الإسلامية فى أن الملك فيها لم يظل كغيرها ، محفوظا فى أسرة معينة ، بل حدث فى القرن الثامن الهجرى والرابع عشر الميلادى أن انتقل الحكم إلى رجل ليس من بيوت الملك ، وذلك بمساعدة ملك الحبشة^(١١٦) . وفى بقية المظاهر، تقترب هذه السلطنة من السلطنات الإسلامية وتسير المعاملة فيها بالتبادل ، وأهلها على المذهب الحنفى^(١١٧) .

(١١٤) مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٤٨١ ؛ الإلام ص ٧

(١١٥) Trim., p. 67

(١١٦) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٩ ، ٣٣٢

(١١٧) مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٤٨٣ ؛ الإلام ص ٨ ؛ Trim., pp. 67-68

سلطنة هدية: تقع غرب السلطنات الإسلامية وتجاور أرايينى ، وتشغل مساحة واسعة بين نهري حواش وجيبي وليست حدودها معروفة بدقة شأنها كشأن باقي الولايات الإسلامية وتتكون من ٨ مقاطعات^(١١٨)، ورغم أنها دون أوفات في المساحة والإمكانات إلا أنها أقوى الممالك السبع وأكثرها خيلاً ورجالا ، فيقال إن عدة جنود سلطانها بلغت نحواً من ٤٠ ألف فارس سوى الرجالة الذين يبلغون ضعف هذا العدد^(١١٩) تقريباً. ومع أن الطبقة الحاكمة فيها إسلامية ، إلا أن أغلب رعاياها على الوثنية ، وهؤلاء الرعايا من السيدا والجوارجي والشابو وهذا الأخير خليط من العنصرين الأولين^(١٢٠) وتقرن شهرة هدية بتجارة الخصيان الذين يجلبون إليها وهؤلاء يعرفون في مصر باسم الطواشية ، وقد حظر ملك الحبشة هذه العملية الوحشية ، غير أن اللصوص ما فتئوا يسيطرون على العبيد ويأتون بهم إلى بلدة وشلو القريبة من هدية وسكان وشلو هذه همج متبررون ، يخصى العبيد عندهم لدرائتهم بالخصى ، وهذا هام لتجار النخاسة ، إذ أن الخصى أرفع ثمناً من غيره ، وبعد إتمام عملية الخصى يحمل هؤلاء إلى هدية حيث يعالجون مرة أخرى حتى يبرأوا نظراً لأن مجرى البول يكون قد انسد بسبب القيح عند الخصى ، ولأهل هدية دراية بعملية العلاج والتطبيب ، ومع ذلك فإن العدد الذي يموت من الخصيان بسبب هذه العملية أكثر من الذى تكتب له الحياة لبيع مصدرأ من هدية^(١٢١) .

Beckingham and Huntingford, op. cit pp. LXIII-LXIV (١١٨)

(١١٩) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٧ - ٣٢٨

Trim., pp. 66 (١٢٠)

(١٢١) مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٤٨٢ - ٤٨٣ ؛ الإلام ص ٧ - ٨ ؛ صبح

الأعشى ج ٥ ص ٣٢٧ - ٣٢٨ ؛ أعلام الطراز المنقوش ورقة ٣ ؛ التعريف ص ٣٠

سلطنة دارة : تقع على حدود أوفات الغربية وشمالي شرقي هدية في منطقة السيداما .
وتعتبر أضعف أخواتها حالاً وأقلها خيلاً ورجالاً ، ولكنها تستطيع أن تقيم
جيشاً يعدل في قوته جيش أوفات إذا عنيت بهذه الناحية . ولا تختلف كثيراً
عن غيرها من الإمارات الإسلامية ، فأهلها مسلمون على المذهب الحنفي ومعاملتها
بالمبادلة (١٢٢) .

أما الإمارات الإسلامية الأخرى : دوارو وأراييني وشرخة ، فهي إمارات صغيرة ،
قليلة الأهمية ، ولم يذكر عنها سوى أن أهلها مسلمون أحناف ، وأن عدة عساكر
الأولى تقرب من قوة أوفات في الفارس والراجل وفرسان الثانية نحو عشرة آلاف
غير الرجالة ، بينما لا تتجاوز قوة الأخيرة ثلاثة آلاف فارس سوى الرجالة (١٢٣) .

مشيخات الساحل : وبجوار هذه الإمارات ، نجد عدداً من المراكز والمشيخات
الإسلامية المساحلة للبحر الأحمر والمحيط الهندي منها : عوان المقابلة لتهامة (١٢٤) ومقدشو وبراو
وسيو وبيت ولامو ومالندي وكليفي ومبسا وزنبار ومافيا وكوة وموزمبيق وسوفالا
آخرها وهذه كلها مطلة على المحيط الهندي . وكانت سوفالا زمن السعوى المركز الذي تنتهي
إليه السفن العمانية في بحر الزنج . كذلك قامت مراكز استقرار عربية إسلامية على ممر الزم
في جزائر كومورو . وعلى طول الساحل الغربي لدغشقر نفسها نشأ مثل هذه المراكز (١٢٥) .

(١٢٢) مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٤٨٣ ؛ صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٩ ؛ الإلام
Trim., p. 67 ، ٨

(١٢٣) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٦ - ٣٢٨ ؛ الإلام ص ٧ - ٨ ؛ مسالك الأبصار
ج ٢ ق ٣ ورقة ٤٨٢ - ٤٨٣

(١٢٤) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٦

(١٢٥) ذكرت هذه المراكز مرتبة من الشمال إلى الجنوب ، وآخرها سوفالا في أقصى
الجنوب وتقع قرب مصب نهر ريفي جنوب نهر زميرى

Coupland (R.): East Africa and Its Invaders pp. 22-25

فأما مقدشو ، فهذه يرجع تأسيسها إلى قرامطة البحرين حوالى عام ٩٢٠م ويسكنها عنصر الجبالا وقد ظلت فترة من الزمن أقوى مدن الساحل^(١٢٦) ، ويحكمها سلطان، ورائى يرد نسبه إلى عرب القحطانية . زارها ابن بطوطة عام ١٣٣١م وسلطانها يومئذ أبو بكر بن الشيخ عمر من أصل صومالى يتكلم لغة مقدشية-أهلها صومالية - كما كان يعرف العربية ، ويلقب بالشيخ . وقاضيا المعاصر يومئذ ابن البرهان المصرى . وصفها ابن بطوطة بقوله : « إن أهلها معروفون بالكرم وتشتهر بالثياب المنسوبة إليها ، ولها نيل عظيم يشبه نيل مصر فى زيادته فى الصيف »^(١٢٧) وأما كلوه (Kilwa) فقد^(١٢٨) أسست بعدمقدشو على يد فريق من المهاجرين الجدد من ساحل الخليج الفارسى . وتقع مدينة كلوة جنوب جزيرة مافيا ، وسلطانها عند زيارة ابن بطوطة هو أبو المظفر حسن^(١٢٩) .

بهذه الطريقة ظهر عدد من المدن العربية على طول الساحل الشرقى من خليج عدن حتى مدار الجدى ومابعده ، على حافة ما كان جغرافيو العرب فى العصور الوسطى يطلقون عليه أرض الزنج^(١٣٠) .

والملاحظ[!] على هذه المشيخات الساحلة للبحر ، أنها كانت مراكز توسع على نحو ما كانت عليه صور قديما ، أوسنغافورة أو هونج كونج حديثا ، فقد عملت على توسيع رقعة نفوذها برّا وبحراً ، وكل مركز من هذه المراكز قد أقيم بحيث يستطيع أن

(١٢٦) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام (ترجمة الدكتور حسن إبراهيم والدكتور عابدين والـأستاذ النجراوى) ص ٢٨٧؛ 22-23، pp. Coupland, op. cit., p. 62 Trim.,
(١٢٧) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٩٦ - ١٩٧ ؛ الإلام ص ٢٥ ؛ صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٦

(١٢٨) انظر الخريطة .

(١٢٩) من أمراء كلوة : الحسن بن سليمان ، وسليمان بن الحسن ، وعلى بن الحسن .

(زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى - ترجمة الدكتور زكى محمد حسن والدكتور حسن محمود والدكتورة سيدة الكاشف - ج ١ ص ١٣٨ ؛ الدعوة إلى الإسلام ص ٢٨٧ ؛ رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٢٠٠ - ٢٠١ ، Trm., p. 62)
(١٣٠) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٨٧ - ٢٨٨

يعد نفوذه ويحمي نفسه ، فكانت المدن مسورة محصنة ؛ وبنيت منازل العرب بها من الحجر . ومنذ تحول الساحل كله إلى الإسلام في القرن التاسع أو العاشر الميلادي ، صار لكل مدينة مساجدها الخاصة ، وزينت هذه المساجد أحيانا بالزخارف الفارسية الجميلة . واحتفظ المستعمرون في هذه المدن بعاداتهم وتقاليدهم في الحياة ، وأبرز ظاهرة ميزتهم ، ظاهرة النزاع الداخلي حول ولاية الحكم في هذه المدن ؛ إذ كانت كل مدينة عبارة عن دويلة قائمة بذاتها (City-State) تشبه في وضعها السياسي والإداري المدن الإغريقية القديمة ، هذا وهناك النزاع والتخاصم بين المدينة والأخرى حول السيادة التجارية أو السياسية ، ولم توضح لنا التاريخ المحلية لهذه المراكز تفصيلات عن الأسر الحاكمة ، وإنما أفاضت في النزاع بين المدن المختلفة وسيادة إحداها على الأخرى . أما اتحادها فيما يشبه أباطورية عربية ، فلم يتم شيء من هذا في ذلك الوقت . فمثلا استطاعت ممبسا أن تتحكم في جزء من الساحل خلال القرن الثاني عشر ، وكذلك سادت مشيخة بيت (Pate) فترة من الزمن وانتصرت مع ما جاورها من المشيخات الساحلية حوالي عام ١٣٣٥ م وبسطت نفوذها وسيادتها على طول الساحل من مدينة مالندي Malindi حتى كلوة باستثناء زنبار ؛ كما أن مقدشو Mogadishu وبمبا Pemba وزنبار ، تحكم كل منها في عدد من المدن الأخرى . غير أن أهم من هذا كله هو ما يتعلق بسيادة كلوة وبروزها في ميدان القوة وسعة النفوذ ، فقد تمكنت مشيختها من بسط سيادتها على طول الساحل والجزائر المحيطة به بما فيها جزر كومورو ؛ وعندما وصل البرتغاليون إلى إفريقيا الشرقية لأول مرة في نهاية القرن الخامس عشر ، كانت كلوة لا تزال المشيخة الحاكمة في تلك المنطقة ؛ وحينما وصل داجاما إلى موزمبيق ، كان بها ممثل لسلطان كلوة ، كذلك كانت سيادة كلوة مرسومة على المنطقة الساحلية في جنوب موزمبيق وبها من المدن أنجوش Angoche وكويليمين Quilimane وسوفالا Sofala . أما في شمالي كلوة ، فلم يكن لها من النفوذ الفعلي أو التحكم السياسي كما هو الشأن في جنوبها ، إلا أنه كان لها بعض النفوذ

والتأثير ، نظراً لارتباط الأسرتين الحاكمتين في كل من كلوه وممبسا ، إذ كان سلطان ممبسا متزوجاً من ابنة سلطان كلوه .

الخلاصة لم تكن هناك سيادة عامة مستمرة لإحدى تلك المشيخات الساحلية ، وإنما وجدت سيادات مؤقتة في بعض الفترات ، تحققت عن طريق القوة أو الدبلوماسية أو المصاهرات ؛ ويمكن القول أن الذي غلب على علاقة هذه المشيخات بعضها ببعض هو التنافس والنزاع ، ولعل أقوى ما وقع من خصام ونزاع هو ما كان بين ممبسا ومالندى ، وظل هذا حتى قدوم البرتغاليين .

ومن ناحية أخرى ، يلاحظ أن المجتمع الذي نشأ ونما حول المستعمرات العربية في ساحل إفريقية الشرق ، لم يكن عربياً بحتاً ، فقد ظل العرب كثيرهم من المستعمرين في إفريقية وغيرها من القارات ، يكوّنون طبقة أرستقراطية ، ويميش بمجوارهم الهنود ، لكنهم لا يشتركون معهم في الحكم ، والمعروف أن صلة الهنود بذلك الساحل صلة قديمة كصلة العرب أنفسهم ، ولهم نشاط ملحوظ في الأعمال المالية والتجارية^(١٣١) . تكونت إذن عدة إمارات ومراكز إسلامية في الوطن الحبشى ، وهى مستقلة داخليا وتدفع الجزية أحياناً لملك الحبشة ، وتحاربه أحياناً كثيرة ، وكانت الكنيسة القبطية في مصر تكلف مبعوثيها في بعض الأوقات ، بمراعاة مصالح المسلمين في الحبشة ، فمثلاً تدخل بدر الجلال وزير المستنصر الفاطمى (٤٢٧-٤٨٧هـ ١٠٣٥-١٠٩٤م) في تعيين أسقف معين للحبشة هو الأب ساويرس ، وذلك عام ٤٧٣هـ ١٠٨٠م) واشترط عليه رعاية جانب المسلمين والاهتمام ببناء المساجد والإكثار منها ، ولما نفذ الأسقف ما اتفق عليه مع بدر الجلال ، ثار المسيحيون ضده بالحبشة ، فحاول تهدئة هذه الثورة بقوله : إن هذه المساجد لا لشيء سوى استعمال تجار العرب ، وإنها لا تضر في شيء وإننى إذا رفضت البناء ربما أدى ذلك إلى اضطهاد الأقباط بمصر » ورغم هذا القول فقد أمر ملك الحبشة بسجنه كما أمر بهدم المساجد السبعة التى تم بناؤها كما أصدر

عدة قيود على نشاط التجار المسلمين ، مما كان من بين نتائجه قطع العلاقة بين مصر والحبشة (١٣٢) .

يتضح من هذا أن هناك عاملين قويين سيطرا على سياسة ملوك الحبشة هما : العامل السياسى والاقتصادى للحد من نشاط المسلمين التجارى والاستيلاء على بلادهم لتوسيع مملكتهم ، وثانيا العامل الدينى ، لكن ربما كان أساس النزاع سياسياً أكثر منه دينياً .

وليس هذا بغريب إذا علمنا أن الأراضي التي يسيطر عليها المسلمون في الحبشة تفوق في مساحتها أرض مملكة الحبشة وأن هذه الرقعة الإسلامية كانت تحوطها من الجنوب والشرق ، فضلا عن إحاطة الإسلام بها من ناحية السودان من الشمال والغرب ، وقد أدى هذا إلى عزل مملكة الحبشة عزلا تاما عن العالم الخارجى ولا سيما بعد استيلاء المسلمين على ميناء عدل قرب مصوع ، وهو ثغر دولة أكسوم ومخرج أثيوبيا الوحيد إلى البحر الأحمر مما أدى إلى تدهور أحوال الحبشة . يقول جيبون (Gibbon) لقد رقدت أثيوبيا في سبات عميق زهاء الألف عام ، نسوا فيها العالم الذى نسيمهم .

غير أنه لما ولت الأسرة السلمانية عرش الحبشة عام ١٢٧٠م وأول ملوكها هو يكونو أملاك (Yekuno Amlak) ١٢٧٠-١٢٨٥ (١٣٣) ، اتخذت هذه الأسرة خطة حاسمة لتدعيم سلطان الحبشة وتوسيع ملكها على حساب جيرانها المسلمين ذلك أن السليمانيين وجدوا المسلمين يسيطرون سيطرة تامة على التجارة كما أن الموانى في أيديهم

(١٣٢) Trim., pp. 62,65

(١٣٣) ذكر كولبو Coulbeaux أن سنوات حكم هذا الملك هي من ١٢٦٨ إلى ١٢٨٣ ، وذكر بذج Budge في اسم الملك أنه ليس اسماً وإنما هو جملة أو عبارة قصيرة معناها : سوف يسود أو سوف يحكم ، وأن هذه الجملة كانت تقال له أو عنه بواسطة بعض رجال الدين ، ويحتمل أن رجل الدين تكلاهايمانوت هو الذى قالها ، إذ كان معروفاً بالنبوءات ، أما اسمه الذى عرف به عند تسميته فهو : تاسفا إياسوس Tasfa Iyasus ؛ ويقول البعض إن اسمه حنا . (Budge , p, 258 ; Coulb., pp . 284-286 , Trim., pp . 65,72; Encyclo, of Islam; Art : Hamites and East Africa)

مما جعل أثيوبيا وعلاقتها الخارجية تحت رحمة المسلمين فذبلت المدن الأثيوبية التي كانت مزدهرة ، ومنها مدينة أكسوم العاصمة التي فقدت أهميتها ، وحلت بالبلاد أزمات اقتصادية نتج عنها قحط^(١٣٤) .

اتخذ يكونو أملاك مدينة تجولات بمنطقة أحمره عاصمة له ، وأبقى على أكسوم لتكون عاصمة دينية حيث يتوج الملوك^(١٣٥) . ولما كانت مملكة الحبشة من غير أسقف منذ نهاية الأسرة الزغوية ، فقد استهل هذا الملك حكمه بالاتصال بالسلطان الظاهر بيبرس في مصر عام ١٢٧٤/١٢٧٥م ، وذلك عن طريق سلطان اليمن ، لكي يعمل بيبرس على تعيين أسقف للحبشة ، بشرط استيفاء هذا الأسقف لشروط النزاهة والتفرغ للشئون الروحية ، ولا يجعل همه منصبا على جمع المال . ومما جاء في رسالة يكونو أملاك إلى بيبرس قوله : « أقل المالك يقبل الأرض وينهى بين يدي السلطان الملك الظاهر خلد الله ملكه .. فنحن ما جاءنا مطران مولانا السلطان ، ونحن عبيده في رسم مولانا السلطان للبطريرك أن يجهز لنا مطرانا يكون رجلا جيدا عالما لا ينجي ذهبا ولا فضة .. ثم تمضى الرسالة وتشير من طرف خفي إلى معنى التهديد ... وعندى في عسكرى مائة ألف فارس مسلمين وأما النصارى فكثير لا يحصون والكل غلمانك وتحت أمرك ... »^(١٣٦) وربما أراد الحطى أن يستحث بيبرس لإرسال المطران ، فأوضح له أن لديه عددا كبيرا من المسلمين تحت أمره يستطيع أن يوقع بهم إذا رفض طلبه ، ومن ناحية أخرى عبارات التزلف هذه لم تحف على المعاصرين والمؤرخين ، فيعلن القلقشندى بأنه إذا لم تكن لملك الحبشة حاجة إلى مطران يعينه بطريرك الإسكندرية ، لما أظهر هذه العبودية^(١٣٧) .

(١٣٤) بوصيلي ص ١٠-١١

(١٣٥) Trim., pp. 65,72; Coulb., pp. 285-7

(١٣٦) صبح الأعشى ج ٨ ص ١١٩-١٢٠

(١٣٧) القرينى : السلوك لمعرفة دول الملوك - نشر وتحقيق الدكتور زيادة - ج ١

ص ٦١٥-٦١٦ وحاشية ١؛ صبح الأعشى ج ٨ ص ١١٩-١٢٠



جرت مفاوضات بهذا الصدد ولكن سلطان الماليك رفض تعيين أسقف ، محتجا بعدم وصول رسول خاص من قبل ملك الحبشة ، ولعل السبب الحقيقي راجع إلى أن بيبرس يعلم حق العلم كراهية هذا الملك الشديدة نحو مسلمي الحبشة فضلا عن اتخاذ تدابير قاسية ضدهم ، دليلها قيامه بتحصين الحدود المتاخمة لهم (١٣٨) ومما ورد في إجابة بيبرس « . . . فأما طلب المطران فلم يحضر من جهة الملك أحد حتى كنا نعرف الغرض المطلوب . . . وأما ما ذكره من كثرة عساكره وأن من جملتها مائة ألف فارس مسلمين ، فإله تعالى يكثر في عساكر الإسلام . . . » (١٣٩) ويدل الشطر الأخير من هذه الرسالة على كياسة السلطان المملوك وأنه أجاب فعلا على ماتضمنه كتاب الخطي من تهديد (١٤٠) ولكي يرد ملك الحبشة على صلة الممالك الإسلامية الحبشية بالعالم الإسلامي الخارجي ، اتصل بالامبراطورية البيزنطية وذلك بإرسال هدايا من الزراف إلى الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوجوس (١٣٦١ - ١٣٨٢) (١٤١) .

ولما كانت مملكة أوفات الإسلامية أقوى الممالك الإسلامية بالحبشة ، فقد تزعمت حركة الجهاد ضد الحبشة وانضوى تحت لوائها بعض الولايات الإسلامية المجاورة ، بل إن جميع ملوك هذه الممالك ، متفقون على تعظيم صاحب أوفات منقادون إليه ،

Trim., p. 69 (١٣٨)

(١٣٩) صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٩

(١٤٠) رغم ما هو معروف عن الكراهة المتبادلة بين ملوك الحبشة وسلاطين الماليك ، فإن ذلك لم يحل دون تبادل عبارات التمجيد والصدقة ونحو ذلك مما هو مألف عادة في العرف الدبلوماسي ، وذلك لأهداف سياسية غير خافية ، من ذلك أن مكاتبة سلاطين مصر إلى ملوك الحبشة ، كانت تصدر دائما بعبارة : « أطال الله بقاء الخطي . . . (أو) أطال الله بقاء الحضرة العالية الملك الجليل الهمام الضرغام ، الأسد الغضنفر . . . العادل في مملكته ، المنصف لرعيته . . . عز الله النصرانية . . . ركن الأمة العيسوية . . . حافظ البلاد الجنوبية ، متبع الحواريين والربانيين والقديسين ، معظم كنيسة صهيون ، أوحده ملوك اليعقوبية ، صديق الملوك والسلاطين . . . » (صبح الأعشى ج ٨ ص ٤٠ - ٤١ ؛ التعريف ص ٣١) .

Budge, p. 285 (١٤١)

وذلك على حد قول القلقشندي^(١٤٢). ومن ثم أخذت هذه المملكة تركز قوتها وتستعد لمقابلة الأخطار التي تهددها من جانب مملكة الحبشة .

برزت هذه الأخطار بشكل واضح على عهد خليفة يكونو أملاك وهو ابنه ياجبعاصيون (Yagbea Seyon) « ١٢٨٥-١٢٩٤ »^(١٤٣) بدأ هذا النجاشي بشن حملة حربية ناجحة ضد إمارة عدال (Adal)^(١٤٤) وهي تابعة لسلطنة أوفات . ويرجع سبب هذه الحملة المباشر إلى أن ياجبعاصيون كان قد أرسل مبعوثاً دينياً إلى القدس ، حيث يوجد دير حبشي ترعاه مملكة الحبشة ، وخلال مرور هذا المبعوث الحبشي ببلاد عدال الإسلامية ، حاول سلطانها تحويله إلى الإسلام ، فلما أبى أجبره على الختان ، ويقال إن إمارتين إسلاميتين عاونتا ملك الحبشة في هذا الهجوم الظافر الذي انتهى بنهب عدال وعقد هدنة بين الطرفين ، أعيد بعد الهدنة فتح الحدود للتجار المسلمين لممارسة نشاطهم ، مما عمل من جانب آخر على إنعاش الحركة التجارية بالحبشة ذاتها^(١٤٥) .

حاول ياجبعاصيون إعادة الكرة في طلب أسقف مصرى ، فأرسل سفارة إلى السلطان قلاوون عام (٦٨٩ هـ - ١٢٩٠ م) أوضح فيها أنه لن يتخذ سياسة والده وقد نجحت السفارة وعين الأسقف^(١٤٦) .

على أن مملكة الحبشة قد مرت بعد ذلك في فترة اضطرب بسبب كثرة أبناء ياجبعاصيون وتنازعهم ، فضلاً عن رغبة الملك نفسه قبيل وفاته في أن يدعم الأمور

(١٤٢) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٢

(١٤٣) يلاحظ كذلك في اسم هذا الملك ، أنه ليس علماً ولكن جملة معناها: سوف يبعث الله صهيون ؛ أما الاسم الذي عمد به فهو سليمان - Budge, p. 287

(١٤٤) مدينة عدال ثغر على رأس خليج تاجورا قرب جيبوتي الحالية (انظر الخريطة ؛

Encycl. of Islam, Art. «Adal»

(١٤٥) Trim. pp. 69-70

(١٤٦) عابدين ص ١٧٤ ؛ Trim., p. 69

بينهم بحيث يجعل لكل واحد منهم نصيبا في الحكم ، ولذلك قرر أن يحكم أبناؤه الخمسة^(١٤٧) على التوالي بحيث يتولى كل منهم الحكم لمدة سنة واحدة ويليه الآخر وهكذا على أن يتمتع كل منهم خلال السنة التي يحكم فيها بكل معاني السلطة الحقيقية حكم الأربعة الأول السنوات الأربع المقررة لهم بحسب النظام الذي أقره أبوهم ، غير أن الخامس لم يطق أن يصبر حتى ينتهي أجل حكم الرابع ليتولى بعده ، فدبر مؤامرة للقبض على الأخ الحاكم وإخوته الآخرين لينفرد بالحكم من بعدهم ، ولكن مؤامره قد كشفت وانتهى الأمر بسجنه ومن والاه ، استغرقت هذه الفترة خمس سنوات من ١٢٩٤ إلى ١٢٩٩ م استطاع المسلمون خلالها تقوية أنفسهم وتدعيم سيطرتهم على الساحل الحبشي^(١٤٨) كما أنه حدث خلال تلك الفترة أن قام أحد المسلمين ويسمى الشيخ محمد أبو عبد الله وأعلن أنه قد أوحى إليه بجمع جيش جرار لفتح الحبشة والقضاء عليها ، فقام عام ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ - ١٢٩٩ م) وحشد حوله طائفة كبرى من عناصر الجالا والصومال وأعدهم للجهاد وغزا الحبشة فاضطر ملكها إلى التنازل للمسلمين عن بضع ولايات على الحدود وذلك بمقتضى معاهدة نظير اعتراف المسلمين بسيادة ملك الحبشة العليا ويبدو أن هذه الحادثة إحدى حلقات النزاع بين مملكة أوفات الإسلامية وأوغريها من الإمارات وبين الحبشة^(١٤٩) وازدادت قوة المسلمين على عهد الملك ودم أرعد (Wedem Arad) (١٢٩٩ - ١٣١٤ م) الحبشي الذي لم يستطع أن يدفع هجماتهم أو يتخذ أى إجراء لدفاعهم فقد وجد أن جميع الساحل الحبشي في قبضة العرب وهو عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من إمارات ومراكز إسلامية ، يحكمها خليط من العرب والزنوج مع وجود بعض الوثنيين . وحين تحققت سلطنة أوفات أو عدل من

(١٤٧) هؤلاء الأبناء الخمسة هم : Senfa Ared أرعد ؛ حزبه أسجد
Hezba, Asgad ؛ قدمه أسجد Kedma' Asgad ؛ جين أسجد Djini' Asgad
سابا أسجد Saba' Asgad (Budge, p. 287)
Budge, p. 287 (١٤٨)

(١٤٩) الشاطر بوصيلي ص ١٢ ؛ Trim., p. 70

ضعف الملوك السليمانيين وعجزهم عن ملء مراكرهم رأيت أن الوقت قد حان للقيام بحركة جدية لإعلان استقلالها وانفصالها عن السيادة الاسمية التي يفرضها ملوك الحبشة ووجدت هذه السلطنة تشجيعاً من جميع المسلمين ولاسيما من المهتمين بشئون التجارة البحرية الذين يهدفون إلى وضع أيديهم على موطن العاج والجلود والفيلة والصبغ والبهار والذهب ، فهم يعتقدون أن هذه السلع توجد بكميات لا تقدر في هضبة الحبشة ومن ثم بدأت هجمات المسلمين ضد الأحباش وقد استمرت هذه الهجمات نحو ثلاثة قرون بعد ذلك مما أدت في نهاية الأمر إلى تدمير مملكة الحبشة تقريباً . والمعروف عن ودم أرعد وهو ابن يكونو أملاك أنه بعث برسالة إلى البابا كليمنت الخامس في أفنيون بفرنسا ، ولكن ليس من المعروف هدف هذه الرسالة هل كانت لغرض روجي بحث أو لطلب المساعدة المادية ضد المسلمين (١٥٠) .

وإذا كانت مملكة الحبشة قد انحطت على عهد الملوك السليمانيين الأول فإنها لم تلبث أن قويت وازدهرت خلال حكم عمداصيون الأول (Amda Soyon I) (١٣١٣ / ١٣١٤ - ١٣٤٣ / ١٣٤٤) ويلقب بجبرامسقل (Gabra Maskal) أى عبدالصليب أو خادم الصليب وهو الاسم الملكي له لكنه كان يدعى دائماً عمداصيون بمعنى عموداً أو دعامة صهيون (١٥١) وهو ابن ودم أرعد ؛ ونظراً لما أحرزته مملكة الحبشة من قوة وازدهار على يديه ، فقد اعتبر في نظر المؤرخين المؤسس الحقيقي للدولة الحبشية (١٥٢) .

(١٥٠) الشاطر بوصيلي ص ١٣ ؛ Budge, pp. 287-8

(١٥١) يقول القلقشندي نقلاً عن العمري إن اسمه عمد سيون ، وكان هذا الملك يعاصر العمري ومعنى اسمه كما يشرح صاحب صبح الأعشى: ركن صهيون ، وصيون هذه بيعة قديمة بالإسكندرية معظمة عندهم . صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٢ Budge, p. 288

(١٥٢) يذكر عن عمد صهيون أنه ارتكب جريمة الزنا مع محظيات أبيه ، وحتى مع أخته ، مما أدى إلى تمسك الأب هو نوربوس وحرمانه من الكنيسة، فكانت النتيجة أن انقلب الملك ضد رجال الدين ، فشتت الرهبان ، وعذب هذا الأب في شوارع المدينة، حتى سالت دماؤه على الأرض ، ولما اشتعلت النيران بالمدينة، في أمسية ذلك اليوم، اعتقد الملك أن رجال الدين هم الذين دبروا الحريق فازداد في اضطهادهم وتشيتهم حتى هرب الكثير منهم إلى أماكن نائية... (Budge, pp. 288-9)

لا يهمننا صدر حكمه الذى قضاه فى اللهو والفجور وما أدى إليه من انقسام تام ، بينه وبين الكنيسة ورجال الدين فى دولته وإنما الذى يعنيننا فقط هو علاقته مع المسلمين فى الوطن الحبشى وصدى هذا فى العلاقة مع مصر .

كان يعاصره فى مصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، والمعروف أنه تسلم احتجاجاً شديداً للهجة من عمد صهيون فى عام ١٣٢٥ م ينعى على السلطان الناصر اضطهاده للأقباط فى مصر ويهدد باتخاذ إجراءات مماثلة ضد العرب المسلمين فى الحبشة وتحويل البحر إلى النيل إلى الصحراء لجميع مصر ، غير أن الناصر لم يعبأ بهذا الاحتجاج وطرد السفارة الحبشية (١٥٣) .

بدأت أعمال عمد صهيون الحربية ضد الإمارات الإسلامية بالحبشة على أثر السياسة التى انتهجتها سلطنة أوفات الإسلامية للاستقلال عن الحبشة بل والتوسع فى أملاكها للاستيلاء على مواطن العاج والمنتجات الإفريقية ، فقد تقدم السلطان حق الدين وتوغل فى أملاك الحبشة فغزا الولايات المسيحية وأحرق كنائسها وأجبر المسيحيين على الدخول فى الإسلام ، كما قبض على سفير حبشى عائد من القاهرة ، ولما فشل فى إقناعه لاعتناق الإسلام ذبحه ، فأثار بذلك نائرة عمداصيون ومن ثم خرج ملك الحبشة عام ١٣٢٨ م وهجم على مملكة أوفات من جميع جوانبها حتى فرق شمل الدفاع الإسلامى وأسر حق الدين ووضع يده على مملكته وكذلك مملكة فاتاجار الإسلامية وجعلهما ولاية واحدة وعين عليها صبر الدين وهو أخو حق الدين بشرط الاعتراف بسيادة الحبشة (١٥٤) .

غير أن صبر الدين لم يطق صبراً على هذه التبعية ، وكون حلفاء إسلامياً من إمارتى هدية ودوارو ، كما استعان باليهود من عنصر الأجوا فى مناطق : وجرا ودميا وبجاندر وعهد إلى أولئك اليهود بالقيام بمناورات ضد الحبشة بينما يقوم المسلمون بهجومهم

Budge, pp. 70-71 ; Trim., pp. 70-17 (١٥٣)

Trim., p. 71 (١٥٤)

الكاسح^(١٥٥) تقدم صبر الدين وغزا الحبشة واستولى على كثير من الغنائم كما قتل الكثير ، وبدأ في نظر نفسه أنه كملك الحبشة حتى أخذ يعين الولاة والحكام على المناطق والمدن بل على أما كن لم يرها وأخذ يتهدد عمداصيون معلنا أنه سوف يذبح عبدالصليب ، وأنه سوف يستخدم مانجاشا زوجته في طحن الجبوب وصنع الخبزله^(١٥٦) ولما سمع عمداصيون بهذه التهديدات خرج على رأس جيشه وهاجم الأحلاف منفردين مبتدئاً بمملكة هدية وحطمها قتلاً وأسراً ونهباً وأخرجها من الحلف وحمل ملكها أسيراً مع رعاياه إلى عاصمته ، ثم أرسل فرقة عنيفة من جيشه ، هي أقرب ماتكون إلى الفرق الاتتجارية أو الفدائية ، وتسمى فرقة الذئاب ، وصلت هذه الفرقة إلى قصر صبر الدين ونهبته ، وكانت مقدمة لجيشه الذي تبعها ودمر المدينة ونهب معسكر المسلمين . تقدم عمداصيون إلى فاتاجار واستولى عليها وكذلك مملكة دوارو وملكها حيدرة ، ولما علم صبر الدين بهزيمة جيشه ، يقال إنه كتب رسالة إلى ملكة الحبشة ينبئها فيها أنه سوف يحضر بنفسه ويعلم خضوعه للنجاشي ولما حضر انتهى الرأي فيه بالقتل بناء على رغبة الجيش الذي أوعز للملك بأنه ماجاء خاضعاً إلا لأنه آمن على نفسه بسبب الطلاسم والتعاويذ التي يحيط نفسه بها فيقال إن هذه التمايم والتعاويذ والأحجية قد وجدت حول ذراعيه وفي وسطه^(١٥٧) .

ومعنى هذا انتهاء استقلال وسيادة الممالك الإسلامية في أوقات وهدية وفاتاجار ودوارو ، وجمل من الثلاث الأول مملكة واحدة ، أسند الحكم فيها إلى جلال الدين أخى صبر الدين إذ قبل أن يكون تابعاً لملك الحبشة وأن يدفع له الجزية فاتسعت مملكة الحبشة وأضيفت إليها ولايات جديدة ، وضعف أمر المسلمين ولاسيما بين عنصر السيداما الحديث عهد بالإسلام^(١٥٨) .

Ibid 1 (١٥٥)

Budge, p. 290 (١٥٦)

Budge, pp. 290-1 (١٥٧)

Trim., pp. 71-2 (١٥٨)

اجتمعت كلمة المسلمين في الفترة ما بين عامي ١٣٣٢ ، ١٣٣٨ م على إرسال سفارة إلى سلطان مصر الناصر محمد برئاسة عبد الله الزيلعي ، ليتدخل السلطان في الأمر لحماية مصالح المسلمين في الحبشة فطلب الناصر محمد من البطريق ، بالاسكندرية أن يكتب رسالة إلى ملك الحبشة في هذا الصدد (١٥٩) .

يقول القلقشندي ، « وقد كان الفقيه عبد الله الزيلعي قد سعى إلى الأبواب السلطانية بمصر عند وصول رسول سلطان أمحرا إلى مصر في تنجز كتاب البطريك إليه بكف أذيته عن في بلاده من المسلمين وعن أخذ حريمهم وبرزت المراسيم السلطانية للبطريك بكتابة ذلك ، فكتب إليه عن نفسه كتاباً شافياً بليغافيه معنى الإنكار لهذه الأفعال وأنه حرم هذا على من يفعله ، بعبارات أجاد فيها (١٦٠) . غير أن عمداصيون لم يكف عن مهاجمة المسلمين بالحبشة ، وهؤلاء لم يكفوا عن انتهاز الفرص للثأر منه ، من ذلك أن سكان أوقات انقضوا على الحامية الحبشية وأبادوها عن آخرها ، كما ثارت إماراة عدل ومورا فداهمهما عمداصيون بالذبح والنهب . حدث بعد ذلك أن كل رجال النجاشي من هذا الكفاح التواصل واستأذنوه في العودة إلى بلادهم محتجين بأن موسم الأمطار قد حل بهم ، أبي عليهم ما طلبوا بحجة أن المسلمين ما فتئوا يهددونه وأمرهم ألا يفتاحوه في مثل هذا الأمر مرة أخرى . وحينئذ تكون حلف إسلامي قوى جمع شتات المسلمين تقريبا بالحبشة ، التأم هذا الحلف من : عدل ومورا وطيقو وباجوما ولبا كالا وراجا وحيلة . وجعل خطته القضاء على الحبشة وملكها وبدا بعمليات الكر والفر في جنح الظلام ، والملك لا يفتأ يطاردهم ويود إلى معسكره لكنه عند ما عسكر في مورا الإسلامية تقدمت إليه امرأة مسيحية وأفضت إليه بخطة المسلمين ضده وتلخص هذه الخطة في انتهاز فرصة هبوب العواصف العاتية التي تحتاج هذه المنطقة - وهي عواصف الهبوب - وفي حالة اضطراب المعسكر الحبشي ينقض المسلمون عليه ،

(١٥٩) مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٤٧٧

(١٦٠) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٣

وقد نفذ المسلمون هذه الخطة التي استعد لها ملك الحبشة وتعب المسلمين حتى حدود مملكة عدل ، ولما اشتد الضيق بالمسلمين ، استعان امبرامورا وعدل بأحد أشرف مكة وهو الشيخ صالح أو الإمام صالح وله نفوذ روحى كبير فى منطقة هرر ، كما اجتمع رجال الدين المسلمون مع أمراءهم على جهاد الحبشة ، ويقال بأن عدد أمراء المسلمين وحدهم بلغ نحو ٢٧٢٢ أميراً وبلغ عدد جيوشهم نحو ١٢٦٠٤٨ جنديا . وفى ذلك الوقت ثار جمال الدين واتصل بأمير عدل ، ووحد جهودهم معه . وتذكر المراجع أن ملك الحبشة حين علم بهذه الجوع الزاخرة ، كان يعانى مرضاً نفسياً ، ومعظم فرقه القوية بعيدة عنه ، مثل فرقة «الذئاب» وفرقة «عيون الأبر» - لعلها فرقة الجواسيس وأن زوجتيه كانتا بجانبه تتضرعان له بالإقلاع عن الحرب وهو يجيبهما : «هل أموت كما تموت المرأة ؟ إنى أعلم كيف أموت فى ساحة الوغى ؟ » وصلى إلى الله وصلى له رجال دينه ، والجميع يتضرعون طالبين النصر ، وعمدوه بماء مقدس فدبت فى نفسه الشجاعة والقوة .

وبينما هذا يجرى فى معسكر عمداصيون كانت جيحافل المسلمين تتقدم ، وهى تسد الفضاء لكثرتها ، وتصورها المراجع تصويراً شعرياً ، بأن الوحوش كانت تفر أمامها لاجئة إلى معسكر ملك الحبشة وخرج عمداصيون فى حفنة قليلة من رجاله وقاتل بشجاعة حتى عاد إليه بقية رجاله الذين هربوا من هول المنظر ودامت المعركة ست ساعات انتهت بانتصاره وقتل الشريف صالح وتفرقت جموع المهاجمين ، وتبع ذلك بالتقدم فى الأراضى الإسلامية ناهبا جميع المدن التى مر بها مثل تاراك ودابى وزاسى التى قتل حاكمها عبدالله ، إلى أن وصل إلى مدينة عدل حيث قبض على سلطانها وذبحه مع جميع رجاله فتقدم أولاد السلطان الثلاثة إلى ملك الحبشة مظهري خضوعهم ، وأرسلوا عدة رسائل إلى ملوك وحكام المسلمين الذين كانوا فى حلف مع أبيه ، وطلبوا إليهم الكف عن القتال وأن الأولى بهم الحضور لتقديم فروض الطاعة للنجاشى غير أنهم رفضوا ، فاستأنف النجاشى تخريبه وتدميره وقتاله فى بلاد المسلمين ، حيث دافعت النساء مع

الرجال وأمر بتدمير المساجد وحرق المدن الإسلامية ونهبها واستباحتها ، وعند وصوله إلى مدينة بيكولزر الإسلامية هدد حاكمها وتوعده إن لم يسلم إليه من ترك المسيحية ودخل في الإسلام . فلما حضر هؤلاء إليه وكان من بينهم القسيس والثماس والجندى ، عذبهم الخطى ، وأعقب هذا بالقبض على حاكم المدينة المسلم ، وتابع تخريبه ومذابحه ، وتبودلت المذابح القاسية بين الطرفين وانتصر عمدا صيون ، لكن ليس معنى انتصاره أن الحرب قد وقفت رحاها أو أن المسلمين استكانوا لما أصابهم ، بل تجددت أكثر من مرة واستمرت سجالات . ونظراً لما اقترن به كفاح النجاشي من ظفر ، علاصيته ، وأضحى يحكم عدداً من الإمارات الإسلامية ، عليها حكام وراثيون يولهم بأمره . ويشبه عمدا صيون في رأى بعض الكتاب ، ما كان يقوم به الفراعنة في حروبهم ، ورمسيس الثانى بصفة خاصة ، حين قاتل أولاً بحفنة قليلة من رجاله أمام قادش ، كما يشبه ملوك النوبة في نباتا ومروى (١٦١) .

وفي عهد خليفته وابنه سيف أرعد الملقب بسفينة المسيح أو دعاء المسيح (١٣٤٣/ ١٣٤٤-١٣٧٢/١٣٧٣ م) (١٦٢) حدث أن قبض على عدد من التجار المصريين والمسلمين بالحبشة وأعدم بعضهم وأرغم البعض على اعتناق المسيحية وأرسل فرقة من رجاله لاعتراض طريق القوافل بين القاهرة والحبشة ، فأضر بالتجارة بين مصر والحبشة ، برا وبحرا ، وكان هذا رد فعل لما قام به الأمير شيخو خلال سلطنة الناصر حسن (المتوفى عام ١٣٦١ م) نحو بطريق الاسكندرية مرقص إذ سجنه عام ١٣٥٢ م بسبب امتناع البطريق عن دفع الضرائب التي طلبها الأمير ، تدخل السلطان حسن بنفسه وأطلق سراح البطريق وطالب إليه التوسط لدى ملك الحبشة لإعادة طرق التجارة كما كانت ، فأرسل البطريق بعثة من الأساقفة إلى سيف أرعد الذى استبقى الأساقفة عنده (١٦٣) .

Budge, pp. 291-8; Trim., p. 72 ; Kammerer, pp. 353-4 (١٦١)

(١٦٢) يلقب سيف أرعد بعبارة Newaya Krestos ومعناها « تابع المسيح »

(Budge, p. 298)

Trim., pp. 73,4 ; Budge p. 299 (١٦٣)

وكانت سلطنة أوفات قد انتابها بعض الفتن الداخلية ، بسبب النزاع بين أعضاء الأسرة الحاكمة وانتهى هذا النزاع بانفراد حق الدين الثاني وإعلان استقلاله عن الحبشة ، وحارب سيف أرعد^(١٦٤) وهزم جيوشه التي أرسلها ليساعد بها منافساً له على العرش^(١٦٥) ، وظل على خطة الجهاد ضد الحبشة على عهد خليفتي سيف أرعد وهما ولداه: ودم الملقب بتابع مريم^(١٦٦) (١٣٧٢-١٣٨٢م) وكذلك داود الأول (١٣٨٢-١٤١١ م) . ويذكر المقرئ أنه وقع بين حق الدين وداود الأول هذا بضع وعشرون وقعة في مدة ٩ سنوات آخرها أنه سار إلى الحبشة وهاجمها عام ٧٧٦ هـ (١٢٧٤ م) واستشهد في أرض شوه وضاعت جثته بين القتلى^(١٦٧) .

على أن أخاه سعد الدين وكنيته أبو البركات تولى زعامة حركة الجهاد من بعده . وكان ذلك على عهد داود الأول الذي اتسمت الحرب خلال حكمه بطابع العنف والاستماتة من الجانبين ودحر سعد الدين الجيوش التي أرسلها ملك الحبشة تباعاً بقيادة أمن مرفى وزلن حسق وأسر وغنم ، ومن مغانمه من منطقة زلان ، ما بلغ سهمه شخصياً نحو ٤٠ ألف بقرة ، وزعها بين الفقراء والمساكين وكذلك العسكر حتى لم يجد ماياً كله ، وحصل لسليم بن عبان زوج ابنته ١٢ ألف بقرة ، فأمره أن يخرج زكاتها . يذكر المقرئ أن سليماً لم يمثل لأمر السلطان في تزكية سهمه من الغنime ، فسلط الله عليه الكفرة فأخذوه ومامعه ولم يفلت منهم سوى زوجته ابنة سعد الدين بحيله^(١٦٨) . استولى سعد الدين بعد ذلك على زمدوه وبالي وتوغل في أرض أمحره ، وهي مملكة النجاشي وكان قد بدأ المعركة بالوضوء والصلاة مع رجاله ، وتكلم جهاده بالنصر ، ومن قواده البارزين أسد الذي دحر زلن حسق قائد ملك الحبشة^(١٦٩) . . .

(١٦٤) الإمام ص ١١

(١٦٥) Budge, p. 299

(١٦٦) يلقب ودم أرعد بعبارة Newaya Maryam أى تابع مريم (Budge, p. 299)

(١٦٧) الإمام ص ١٢

(١٦٨) الإمام ص ١٢-١٣

(١٦٩) الإمام ص ١٢-١٣ ؛ Budge, p. 300 : Trim., pp. 73-4

استمر النضال وخسر المسلمون أميراً منهم هو الأمير محمد الذى استشهد فى القتال ومن معه ولم ينج سوى فارس واحد. وأرسل النجاشى داود على قائده باروا ، فتصدى له سعد الدين بنفسه وجمع معه الفقهاء والفقراء والفلاحين وجميع من قدر على حمل السلاح تحالفوا على الموت فى سبيل النصر ، ووقعت الواقعة ، وقتل أكثر المسلمين ، وبلغ عدد القتلى من المشايخ الصالحاء ٤٠٠ شيخ ، فاضطر سعد الدين إلى اللجوء إلى جزيرة زيلع حيث حوصر وقطع الماء عنه ، إلى أن دل أحد الخائنين انعدو على صبر الدين الذى قاتل فترة من الزمن حتى خر صريعاً ، وذلك عام ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ م) .

ويعتبر احتلال الأحباش لزيلع نهاية سلطنة أوفات فلم نعد نسمع شيئاً عن هذه السلطنة إذ ضعف أمر المسلمين وأمعن الأحباش فى تخريب بلادهم وهدم المساجد وبناء الكنائس وظلوا على ذلك نحو ٢٠ عاماً يقتلون ويأسرون ويسبون ما لا حصر له من أهلها (١٧٠) .

تفرق أولاد سعد الدين وهم عشرة ، كان أكبرهم صبر الدين الثانى ، وهاجروا إلى بلاد العرب ، حيث نزلوا فى جوار ملك اليمن الناصر أحمد بن الأشرف إسماعيل فحاربهم وجهزهم لاستئناف الجهاد والنضال ضد الحبشة ، فعاد هؤلاء إلى إفريقيا واستقروا فى موضع يقال له سيارة حيث انضم إليهم من بقى من جنود أبيهم الذين كانوا متفرقين فقوى أمرهم واستأنفوا الكفاح . والملاحظ أن أسرة ولشمع هذه لم تعد تعرف بهذا الاسم وإنما أخذت لنفسها تسمية جديدة هى « ملوك عدل » واختاروا لعاصمتهم الجديدة مدينة داكار أو ذكرها لبعدها عن تهديد الحبشة ، وتقع جنوب شرقى هرر وأضحت مملكة أوفات تعرف منذ ذلك الوقت باسم بر سعد الدين أى أرض سعد الدين ، وذلك فى ذكريات الحروب المقدسة (١٧١) .

(١٧٠) المصادر السابقة

(١٧١) الإلمام ص ١٤ ؛ Encyc. of Islam, Art. «Adal» ; Trim., p. 74

أما علاقة الحبشة بمصر في تلك الفترة فكانت ودية بذليل الهدايا التي أرسلها النجاشي داود الأول إلى السلطان برقوق بن أنص العثماني في عام ١٢٨٧م^(١٧٢) وخلف داود ولداه : ثيودور الأول الملقب بابن الأسد ، لكن هذا لم يطل حكمه ، والثاني إسحاق الملقب بعبد الصليب (١٤١٤-١٤٢٩ م) وخلال حكمه فتحت صفحة جديدة من صفحات الكفاح بين المسلمين والأحباش فاستعد إسحاق بتدريب جيشه واستعان ببعض المماليك الجراكسة ممن كان يشغل وظيفة الزردكاش بمصر وقدم على إسحاق وعمل له زردخانات عظيمة تشتمل على آلات السلاح من السيوف والرمح والزرديات وغيرها وكانوا من قديم إنما سلاحهم الحراب يرمون بها ، - وذلك على حد قول المقرئ^(١٧٣) . وفضلا عن ذلك ، فقد وفد مملوك آخر هو الطنبغا مفرق الذي نفي من مصر ، وعلم جيش النجاشي إسحاق كيفية استعمال النار الإغريقية^(١٧٤) وكيفية الرمي بالنشاب واللعب بالرمح والضرب بالسيف فعرفت الحبشة وسائل الحرب الحديثة وقتئذ ذلك على حين كان بمملكة الحبشة قبلى مصرى يعرف باسم نجر الدولة ، جاء إلى الحبشة ورتب له المملكة - وجبى الأموال فصار ملكا له سلطان وديوان بعد ما كانت مملكته ومملكة آباءه همجا لاديوان لها ولا ترتيب ، ولا قانون ، فانضبطت عنده الأمور وتميز زيه عن رعيته بالملابس الفاخرة بعد ما كان داود بن سيف أرعد يخرج عريانا وقد عصب رأسه بعصابة خضراء ، فصار إسحاق يمر في موكب جليل بشاره الملك^(١٧٥).

وجاء استئناف النضال على أثر الانتصارات الساحقة التي أحرزها صبر الدين الثانى ، إذ أمعن في بلاد العدو واستولى على عدة بلاد منها : سرجان . وبينما كان

Trim., p. 75 ; Budge, p. 301 (١٧٢)

(١٧٣) الإسلام ص ٤

(١٧٤) الطنبغا مفرق من أمراء دولة الجراكسة، ترقى حتى وصل إلى امرأة بعض بلاد الصعيد

وقد فر إلى الخطى ، وكان نابعة في أعمال الفروسية (الألبام ص ٤)

(١٧٥) الإسلام ص ٤-٥

صبر الدين يحرق الكنائس في بلاد عدوه ويفهم ، كان يسحاق يفعل مثل ذلك في رعاياه المسلمين وجرّد صبر الدين أكثر من جيش مرة بقيادة أخيه محمد ومرة بقيادة أمير يسمى عمرو ، وتبادل القتل والأسر والتخريب من الجانبين وحرّق صبر الدين قصر النجاشي وحاول السلطان برسباي يومئذ (٨٤٢هـ = ١٤٣٨ م) أن ينتقم من الأقباط في مصر ، غير أنه امتنع عن ذلك^(١٧٦) .

وبعد وفاة صبر الدين الثاني عام ٨٢٥هـ (١٤٢١-١٤٢٢ م) خلفه أخوه منصور (ت ٨٢٩هـ = ١٤٢٥ م) وأهم ما يذكر عنه بصدد جهاده أنه هاجم جدايا الحبشة حيث وقع في قبضته نحو ٣٠ ألف أسير فخيرهم بين الإسلام أو العودة إلى قومهم فأسلم منهم نحو عشرة آلاف وعاد الباقي^(١٧٧) ، كما أن عهد جمال الدين أخى منصور بارز من حيث إن حرب جيوش أحد قواد النجاشي قد أسلم وصار من أكابر قواد جمال الدين ، ويرجع الفضل إلى هذا القائد في قمع فتنة قام بها بعض رعايا جمال الدين ، كما انتصر على بالي والتقت جموع المسلمين مع جيش يسحاق الذى هزم ، ووزع جمال الدين أسراه على رعيته حتى خص كل فقير ثلاثة رؤوس من الرقيق ، ولكثرتهم كان الرقيق الواحد يباع بربطة ورق وخاتم^(١٧٨) .

وخلال تلك الوقائع قتل يسحاق نجاشي الحبشة عام (١٤٣٠ م) واضطربت أحوال مملكته لكثرة ماوليها من ملوك بعده حكموا مايقرب من خمس سنوات وبسبب الطاعون الذى استمر نحو سنة (١٤٣٣-١٤٣٤ م)^(١٧٩) .

(١٧٦) الإلمام ص ١٤-١٥

(١٧٧) الإلمام ص ١٥

(١٧٨) الإلمام ص ١٦-١٧

(١٧٩) بعد مقتل يسحاق ، تولى ابنه أندراوس . وحكم نحو ستة شهور أو سبعة خلال عام ١٤٣٠ م ، ثم خلفه حزبانان الملقب بـ « نبات مريم » وهو ابن داود الأول ، حكم نحو ثلاث سنوات ، ومن بعده محرّكانان الملقب بـ « دعامّة عيسى » ، وحكم هذا نحو من ثمانية شهور ، ثم بادل نان الذى لم تزد مدة حكمه عن حكم سالفه ، وتوفى عام ١٤٣٤ م (Budge, p. 303 الإلمام ص ١٩ انظر جدول ملوك الأسرة السلليمانية في: 366-7 pp. Kammerer, op. cit.)

وكما أصاب العرش الحبشى ذلك الاضطراب ، أصاب مملكة عدال اضطراب من نوع آخر ، وهو تلك الفتنة التي وقعت بين أعضاء الأسرة الحاكمة . مبعثها الحقد الذى ملأ قلوب بنى عمومة جمال الدين فكادوا له حتى قتلوه عام ٨٣٥هـ (١٤٣١ م) ، وذلك لبعده الصيت الذى بلغه فى جهاده وحسن سيرته فى الرعية ، فضلا عن كثرة الداخلين فى الإسلام خلال عهده ، ومما يذكر عن عدله ، ما أوضحه المقرئى من أن أحد أبناء جمال الدين كان يلهو مع أترابه فكسروا أحدهم ، وأخفى الخدم عنه هذا الخبر ، كما أخفاه عنه أولياء الصغير ، فما زال بهم حتى عرفه فعاقبهم وجمع وجوه دولته وطلب ابنه اجانى ليقتص منه ، ورغم تضرع من حضر ، إلا أنه أبى إلا القصاص وكسر يد ابنه بحجر وقال لولده . « ذق كما أذقت ولد الناس »^(١٨٠) فكان درسا فى العدالة والنصفة . وولى عرش الإمارة من بعده أخوه شهاب الدين أحمد بدلاى الذى ظفر بقاتل أخيه وقتله ، ومن ثم تابع سنة سلفه فى الجهاد والفتوح^(١٨١) ..

وإذا كانت مملكة عدال الإسلامية قد استأنفت نشاطها ، فإن مملكة الحبشة قد استتب الأمر فيها كذلك واستأنفت نشاطها ، عند ما ولى عرشها زرع يعقوب (Zara yakob) ١٤٣٤-١٤٦٨م الذى أخذ اسم قنسطنطين الأول . عمل زرع يعقوب على ضم الفتوح التى غنمها فى بلاد المسلمين بالحبشة وتوحيدها ، وقد بلغت الأسرة السلطانية ذروة مجدها على عهده ، إذ أكثر من بناء الكنائس ومنح الهبات إلى الأديرة ، وعمل على النهضة ببلاده ، ولما وجد خطر الإمارات الإسلامية بزعماء مملكة عدال ، ماثلا غير منقطع ، عول على وضع حد له ، ولا سيما وأن السلطان شهاب الدين أحمد بدلاى قد استولى على عدة بلاد واسترد بالى ورد إليها ألف بيت من المسلمين ، فضلا عما غنمه ودمره من الكنائس^(١٨٢) ، حينئذ فكر زرع يعقوب فى الاتصال

(١٨٠) الإمام ص ١٨-١٩

(١٨١) الإمام ص ١٩

(١٨٢) المصدر السابق ص ١٩-٢٠

بالعالم المسيحي الخارجى وذلك ليناھض اتصال الإمارات الإسلامية فى الحبشة بالعالم الإسلامى الخارجى والمعروف أن إسحاق قد حاول هذه الخطوة قبله ، حين كتب إلى ملوك الفرنجة يحثهم على معاونته لإزالة دولة الإسلام^(١٨٣) .

وكان هناك تاجر فارسى يسمى الحاج نور الدين على يعمل واسطة بين إسحاق وبين ملوك الفرنجة خلال حملات المالك على قبرص عام ١٤٢٥/١٤٢٦ م ٥٨٢٩ ، كذلك كتب إلى الفونسو الخامس ملك أرغونة ١٤١٦-١٤٥٨ م يقترح عليه التحالف ضد المسلمين الذين ينتسب إليهم مسلمو عدال المهدين لمملكته^(١٨٤) ... أجاب الفونسو مقترحا المصاهرة بين الأسرتين لتدعيم أواصر التحالف والصداقة ، ويستدل على وجود هذا التحالف من ذلك الخطاب الذى أرسله الفونسو إلى زرع يعقوب عام ١٤٥٠ م يشير فيه إلى العلاقات السابقة^(١٨٥) ، أما هذا النجاشى فقد حملته الرغبة فى القضاء على الخطر الإسلامى الذى يهدده فى الحبشة إلى العمل على الاتفاق والارتباط بروما ، نظرا لاضطراد قوة المسلمين ورأى ربط كنيسة الحبشة بروما فى نظير مساعدة البابا روجيا ، ومساعدة بعض الدول الأوروبية الكاثوليكية ماديا ، وقد وافق بطريق الإسكندرية على وجهة نظره ، ومن ثم قامت سفارتان من مصر إلى روما عام ١٤٤٠ م إحداها برئاسة الارشمندرت -وظيفة كهنوتية - أندرو من دير القديس أنطون والأخرى برئاسة بطرس الشمس وفى نفس الوقت أرسل زرع يعقوب راهبين من الدير الحبشى بالقدس لحضور مجمع فلورنسة ١٤٣١-١٤٤٥ م المعقود برئاسة البابا ايوجين الرابع (Eugene VI) . ويقال إن زرع يعقوب أصدر قرارا بربط كنيسة الحبشية بكنيسة روما وإنه لهذا السبب سمح له البابا بإقامة دير حبشى فى روما^(١٨٦) ومع أن الدلائل ليست كافية على وجود اتصالات قديمة بين البابا الإسكندر الثالث عام ١١٧٧ م وبين نجاشى الحبشة ،

(١٨٣) المصدر السابق ص ٥ ؛ Trim.. p. 76

(١٨٤) Trim., p. 76

(١٨٥) المصدر السابق

(١٨٦) Trim., p. 76 ; Budge; p. 311 ; Coulb. II, pp. 19-24

أو أن هناك ملكين حبشيين أرسلوا رسائل إلى البابا عام ١٢٩٧ و١٣٠٥م مع قلة وجود الدليل القاطع على هذه الاتصالات القديمة فإنه يمكن القول أن النجاشي زرع يعقوب لم يكن الأول في الاتصال بروما (١٨٧).

ومن جانب آخر ، عمل زرع يعقوب على موادة سلطان مصر يومئذ وهو جقمق العلاني الظاهري (٨٤٢-٨٥٧هـ = ١٤٣٨-١٤٥٣م) حتى لا يضطهد الأقباط في مصر ، فأرسل له كتابا باللغة العربية ومعه بعض الهدايا من الجوارى والرقيق وطشت وإبريق من ذهب مسقط ... ومما جاء في هذا الكتاب .

« المحب الصادق زرع يعقوب المكنى قنسطنطين من نسل سيف أرعد من بنى سليمان بن داود عليهما السلام ، ملك سلاطين الحبشة وصاحب النواب بالملكة النجاشية إلى الإمام الشريف العالي الأوحدي السلطاني الملك الظاهر جقمق سلطان المسلمين والإسلام بمصر والشام .

سيد الأنام ... أما بعد .. إنه قد اتصل إلينا جميل أخباركم ، وأنكم ، حفظكم الله تعالى ، أمرتم بإبطال المظالم من سائر العالم ورددتم القوم الظالمين ورفعتم أسباب المضرات من الرعايا بكل البلاد والأقاليم .. ولما بلغ إلينا ما أنتم عليه من الخير استنشقنا منه عرفاً طيباً .. وقصدنا تجديد ما سبق من العهود من الملوك المتقدمين من بلادنا وبلادكم ، اتباعاً لآثارهم المشكورة ... وآخر ذلك ما كان في أيام الشهيد الظاهر برقوق ونجمله الناصر .. كانوا قائمين بالعدل خصوصاً إخوتنا النصاري متوصين ويرجعوا عنهم القوم الرائدين هدم كنائسهم والقتل على من كان فيها من الأقسسة والراهبين أو ذلك بما يحققون من مناصحتهم في خدمتهم ، ومن كان منهم يموت يدفن من غير تعرض أحد ، ومن كان لا وارث له وخلف شيئاً من الموجود يتولى أمره أبونا البطريك ليستعين به على كلف الواردين والمنقطعين وقد بلغنا الآن هذه القواعد قد تغيرت وأنتم ، حفظكم الله .. عارفون ما يلزم الراعي من النظر في حال الرعية وأن الله يطالبه بذلك .

وأبونا البطريرك وإخواننا النصارى الذين هم الآن تحت عز سلطانكم ومملكتمكم الشريفة نفر قليل جداً ضعيف الحال مساكين فى كل الجهات ، ولا يمكن أن يكونوا قدر قيراط من المسلمين القاطنين بإقليم واحد من بلادنا وأنتم حفظكم الله ليس يخفى عليكم ما فى بلادنا الواسعة من المسلمين تحت حكمنا ، ونحن لهم وللوكلهم مالكون ولم نزل نحسن إليهم فى كل وقت وحين ، ومن تقدم من آبائنا وأجدادنا لم يزالوا بهم متوصين ولأنفسهم وأموالهم حافظين ، سامعين لأقوالهم ، رادعين من يتعرض إليهم ونحن على ما كان عليه آباؤنا سالكون فى طريقهم غير متعرضين لإقامة مساجدهم ولا إلى أيام أعيادهم وأيام مواسمهم . وملوكهم عندنا بالتيجان الذهب ، راكبون الخيول المسومة وعامتهم فى أسبابهم آمنون .. ولا نأخذ منهم جزية ولا شيئاً قليلاً ولا كثيراً . وإن كنتم فى شك من ذلك فاسألوا التجار والمتردين إلى بلادنا . . ومن نقل إليكم غير ذلك فهو من الكاذبين الذين يقصدون رمى الفتن التى هى أشد من القتل . وليس يخفى عليكم ولا على سلطانكم أن بحر النيل ينجر إليكم من بلادنا ، ولنا أما كن فوقانيه ينصرف فيها إلى أما كن أخرى قبل أن يجىء إليكم ، ولا يمنعنا عن ذلك إلا تقوى الله تعالى والشفقة على عباد الله ، وقد عرضنا على مسامعكم ما ينبغى إعلامه فاعملوا أنتم بما يلزمكم .. ولم يبق لكم عذر تبدونه . . وليكن حبل المودة ممتداً بغير انصرام - وستعلمون صحة كلامنا ، واسألوا الجبرتية الذين هم يقيمون بالجامع الأزهر . كم لهم سلطان من المسلمين ... »

ورغم هذا فإن زرع يعقوب لم يكف عن اضطهاد المسلمين وحرهم وكان السلطان جعقلى على علم تام يكذب ما فى هذا الكتاب من ادعاءات ، وما عند الأحباش وملوكهم من « الزور والبهتان . . . » فضلاً عما هناك من تهديدات واضحة ، وذلك بجانب أن « نصارى الديار المصرية قد كثر تعديهم واستطالهم بالمبالغة فى البناء والإحداث الكنائس . . . » إزاء هذه الحقائق رفض السلطان ماجاء برسالة النجاشى وأجاب بكتاب وهدية أرسلهما على يد قاصد سلطانى هو يحيى بن أحمد بن شاد بك ،

غير أن زرع يعقوب لم يرتض هذا الجواب وعوق القاصد السلطاني بعض الوقت ، حتى أجهز على سلطان عدل، شهاب الدين أحمد بدلاى ، وأرسل مندوب جقمق ليرى السلطان المقتول حتى يكون ذلك أنكى للمسلمين .

كانت إجابة جقمق على هذه الأحداث استدعاء البطريك وضربه وتهديده بقتل جميع النصارى لأنهم سبب ذلك ، وأمره بإرسال كتاب بخطه ومن قبله إلى النجاشى ليرد القاصد السلطاني مكرماً ، وعاد يحيى بن أحمد بعد مضي نحو أربع سنوات . . . (١٨٨)

وبوفاة الملك زرع يعقوب عام ١٤٦٨ م ، ينتهى الدور الأول فى تاريخ الأسرة السلمانية بالحبشة ، وهو دور الفتح والتوسع ، فقد اقترن عهد خلفائه المباشرين بتغيير جوهرى فى الأحوال الداخلية والأوضاع الخارجية .

أما الجانب الداخلى فهناك اضطرابات بعضها دينى وبعضها سياسى ؛ بل إن بواكر هذه الاضطرابات قد بدت أواخر عهد زرع يعقوب حين وفد على الحبشة عدد من الرهبان المصريين والسوريين بعد مجمع فلورنسة الدينى الذى انتهى عام ١٤٤٥ م ، وأخذوا ينشرون بعض الهرطقة التى تنسكركمجد المسيح ، فثار رجال الدين فى الحبشة وعقدوا مجلسا قرر بطلان مادعا إليه أولئك المهرطقون ، وغذا بجانب النزاع على العرش لكثرة أبناء زرع يعقوب ، ووقوع بعض المؤامرات (١٨٩) .

حقيقة استطاع ابنه بئيد مريم (Baed Mariam)^١ ومنعاه بيد مريم الذى ولى العرش ١٤٦٨ م (١٩٠) أن يحقق نوعا من الهدوء وأن ييسط سيادته على ملوك عدال فترة من الزمن ، إلا أن هذا لم يدم طويلا فسرعان ما تلاحقت هزأمه على يد المسلمين وأنكأها ماوقع لجيشه عام ١٤٧٨ م حين أباده المسلمون ومزقوه شرمزق ، حتى إن

(١٨٨) السخاوى : التبر المسبوك ص ٦٧-٧٤ ، غابدين ص ١٨٣-١٨٤

Budge, pp. 319-20 (١٨٩)

Kammerer, pp. 360-1 (١٩٠)

الخطي اعتقد أن نعمة السماء قد حلت به ، فوزع بعض الصدقات ، وتابع ابنه إسكندر (١٤٧٨-١٤٩٦م) الملقب بكنسطنطين الثاني ، سياسته وبالغ في تدمير المساجد والمنازل في داکار وهي قاعدة ملوک عدال الإسلامية واستبقى كوفيلهام Covilham رسول جون الثاني ملك البرتغال ليعمل مستشارا له ، غير أن اسكندر لم يعمر طويلا فقد قتل عام ١٤٩٢ وخلفه ابنه الطفل عمدا صيون الثاني (١٩١) ومات هذا الطفل بعد حكم دام نحو ٧ أو ٨ شهور وجاء بعده عمه ناؤود (Naod) أخو اسكندر ١٤٩٤-١٥٠٨ ولم يقصر فيما استنه أسلافه من مداومة الضرب على أيدي المسلمين بل استطاع أن يهزم جيش بالي الإسلامية ويرغم قائدها على المسيحية ويؤليه بالي من قبله ، إلا أن هذا القائد لم يلبث حتى انتقم لنفسه ولدينه وهرب أمام جيش الحبشة ، فانتقم له محمد ملك عدال وشتت جيوش الحبشة (١٩٢) .

وعهد الخطي الملقب بلبنا دنجل (Lebna Dengel) أي بنحور العذراء أو لبان العذراء، عهد بارز في تاريخ العلاقات الحبشية الإسلامية لأنه هو العهد الذي بدأت فيه الأوضاع السياسية والعسكرية تتبدل فيما حوله وترجع فيه كفة المسلمين على الأحباش ومن والاهم (١٩٣). ولذا يمكن أن يقال إن هذه الفترة التي تبدأ من عهد لبنا دنجل أو حتى منذ وفاة جده زراء يعقوب كانت فيما يتعلق بالجانب الإسلامي على النقيض من الفترة السابقة فبينما كانت الفترة السابقة فترة ضعف وتدهور تميزت الفترة اللاحقة ببروز قوة المسلمين وانتصارهم ، بل اتسعت رقعة الممالك الإسلامية في الحبشة بحيث أضحت تضم نحو ثلاثة أرباع مملكة الحبشة وفي نفس الوقت ازداد انتشار الإسلام بازدياد قوته السياسية وذلك بينما انحطت قوى الأحباش وتدهورت ولم يكن باستطاعتهم عمل شيء سوى التزام جانب الدفاع . .

ظهر في أفق هذه الفترة الجديدة التي يؤرخ لها بنهاية القرن الخامس عشر الميلادي وأوائل السادس عشر عامل جديد يتمثل في ظهور الأتراك العثمانيين وقيام حركة

(١٩١) أخفت الملكة رمانه مقتل بئيد مريم نحو ثلاث سنوات حتى لا تضرب أمور الحبشة

Budge, pp. 320-8 (١٩٢)

Chronique du Regne de Menelik II, p.39 (١٩٣)

الكشف الجغرافى ، فتقدم العثمانيون والبرتغاليون ، كل يناصر الفريق الذى التمس العون منه ، كذلك دخلت أسلحة جديدة لم يعرفها مسلمو الحبشة أو الأحباش فى نضالهم السابق .

كشفت البرتغاليون الطريق إلى الشرق أواخر القرن الخامس عشر الميلادى وضرب فاسكودى أجاما ميناء مقدشو الإسلامى بالمدافع عام ١٤٩٩م كما أسس البرتغاليون عام ١٥٠٧م نقطة ارتكاز لهم فى جزيرة سقطرة قرب مدخل البحر الأحمر . أدت هذه إلى اتحاد قوى الإسلام المحيطة بالبحر العربى لصعد الخطر البرتغالى واشترك قانسوه الغورى سلطان الماليك فى مصر بإرسال حملة بحرية فشلت مع أحلافها عام ١٥٠٩م أمام البرتغاليين عند جزيرة ديو على الساحل الغربى للهند . استمر البرتغاليون فى التوسع وتدعيم مراكزهم الشرقية الجديدة وإتلاف بعض الموانئ الإسلامية المطلة على البحر الأحمر وخليج عدن من ذلك ما فعله القائد البرتغالى لوب سوارز (Lope Suarez) حين أحرق ميناء زيلع عام ١٥١٧م ، كما أن قائدا برتغاليا آخر هو سالدانها (Saladanha) نهب ميناء بربرة (١٩٤) .

بهذا الوضع بدأ البرتغاليون يواجهون قوة إسلامية كبرى ، هى قوة العثمانيين . ومنذ فجر القرن السادس عشر الميلادى أخذ العثمانيون يسيطون سيادتهم على بلاد الشرق الأدنى ، واستولوا على سواكن وجزيرة زيلع وأنشأوا علاقات مع المسلمين فى مصوع التى يحتلها البرتغاليون وأسسوا فى كل منهما ديوانا للجهاك لتنظيم تجارتهم ، وجاء استيلاء العثمانيين على هذه المناطق فى الساحل الإفريقى مصدر قلق وخطورة على المسلمين والأحباش على السواء ، فى أثيوبيا ، فقد عرفت القوتان المتناحرتان أن الغزاة الجدد يتسلحون بأسلحة نارية ومدافع لن تستطيع إحداها مقاومتهم ، غير أن المسلمين وجدوا عاملا هاما للارتباط مع الفاتحين الجدد ، وهو عامل الاتفاق فى الدين فضلا عن ترحيب العثمانيين بهذا الارتباط الدينى بجانب الأهداف التجارية ، ولدى المسلمين

بالحبشة معلومات وافية عنها^(١٩٥) أما الحبشة فكان الأمر مختلفا بالنسبة إليها فهي مسيحية متعصبة لمسيحياتها وليس هناك أدنى احتمال لإمكان استعلاء الأتراك على المسلمين الأعداء ، إذن لابد من محاربة مسلمي الحبشة وأحلافهم الجدد ، لكن أسلحة الأحباش لم تزل حتى ذلك الوقت هي القوس والنشاب والسيوف والاعتماد على الشجاعة والفرسية ونحو ذلك ، وهذه لا تجدى فتىلا أمام الأسلحة الحديثة آنئذ ؛ إذن لابد من عون خارجي يتفق في التسليح والنظام مع العدو الأقوى كما يتفق مع الأحباش في العقيدة .

حينئذ رأت الملكة هيلانه أو إيليني (Eleni) العجوز الوصية على لبناندنجل (١٥٠٨-١٥٤٠)^(١٩٦) أن المخرج الوحيد هو الاستعانة بالدول الأوروبية استعانة جدية فعالة ، فحين سمعت بانتصارات البرتغال في المحيط الهندي ، طلبت مساعدتهم ، ومن ثم توالى البعثات الحبشية إلى أوروبا : منها ما كان للبرتغال ومنها ما كان للبابا في روما^(١٩٧) .

على هذا النحو أضحى النضال الإسلامى الحبشى داخل إفريقية صدى للنضال العثمانى البرتغالى أو النضال العثمانى الأوروبى فى حوض البحر الأحمر ثم البحر الأبيض بعد ذلك ، أو قل إن نضال الممالك الإسلامية بالحبشة ضد الحبشة صورة من صور النضال المزمع بين الشرق والغرب ، وهو من جانب آخر امتداد لذلك النضال القديم بين فارس والروم وصداء داخل شبه الجزيرة العربية .

إبراهيم على طرغاب

Budge, p. 330 ; Trim., p. 78 Coulb. II, pp. 97-123 (١٩٥)

Trim., pp. 82 Budge, pp. 319, 322, 326 . ١٨٨ عابدين ص

Kammerer, pp. 363-4

Budge, pp. 330-332, Coulb. II. pp. 56-88 (١٩٧)

Trim., pp. 77-78 ؛ الشاطر بوصيلى ص ١٣-١٥ .